إن الدين عند الله الإسلام

للأستاذ

علي عبد العظيم

السنة الثانية عشرة ــ الكتاب الثامن

سلسلة البحوث الإسلامية

إن الدين عند الله الإسلام

للأستاذ

علي عبد العظيم

سلسلة البحوث الاسلامية

السنة الثانية عشرة ـ الكتاب الثامن

١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨١ م

بســم الله الرحمن الرحيم

تقــديم

لفضيلة الأستاذ الدكتور : الحسينى هاشم

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والســلام على أشرف رسل الله ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن والاه •

وبعد :

فان الدين والتدين فطرة فى الانسان وطبيعة فيه ، وسلوك لا يستطيع التخلى عنه أو العيش بدونه ، فهو ضرورة حتمية ، وعلاج نفسى ، ووقاية صحية لا تغنى عنها أى ضوابط أخلاقية أو قانونية ، اذ لا بديل للعقيدة ، حيث ان الله أودع فى طبائع النفوس البشرية نزعة الايمان العميق ، قال تعالى : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » •

ولا يستطيع مكابر معاند أن ينكر هذا • يقول الحديث : (كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لســانه ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) •

ولما كان من أهم آثار الدين أنه يبدد الأحزان ، ويسوق

العزاء ، ويبعث الآمال ، وييسر مشكلات الحيـــاة ، ويبعث فى النفوس الثقة والاطمئنان والأمان ، تمسك به الانسان وما أغناه عنه شىء من رقى أو حضارة ، لأن العقـــول متفاوتة ، والغرائز تحتاج الى ما يسمو بها وينظمها ، ويسخرها فى خدمة الأفراد والجماعات ، وللاسلام فى التسامى بها أساليب عـــديدة ، بلغت أرقى ما تتطلع اليه العقول •

والاسلام : هو دين الله الذى ارتضاه للبشرية ، وصحبها على امتداد الرسالات السماوية ، ثبت العقيدة فى النفوس عن طريق الدليل والبرهان ، فى التوحيد ، والعبادات والمعاملات ، والاجتماعيات والأخلاقيات ، والسلوك العام للانسان ، فى جميع مراحل حياته الدنيوية والأخروية ، فتحدث فى كتابه الخـــالد عن الغيبيات من : بعث وحساب وعقاب وجنة ونار ، وغير ذلك من الأمور التى لا يستطيع العقل الاستقلال بفهمها أو ادراكها •

هذا فضلا عن حديثه المســـتفيض عن الكون وأسراره ، بأرضه وسمائه وبحاره وجباله ، وفصل ذلك تفصـــيلا دقيقا ، ودعا لاستعمال العقل ، والنظر والفكر فى ملـــكوت الســـموات والأرض وما بث فيهما من مخلوقات عجيبة بديعة الصـــنع ، « صنع الله الذى أتقن كل شىء » •

وكتاب : « ان الدين عند الله الاسلام » لمؤلفه الأستاذ : على عبد العظيم ، كتاب قيم غنى بما اشتمل عليه من مادة علمية

فى هذا المجال ، نقدمه للقارىء المتشـــوق للوقوف على نواحى العظمة فى الاسلام •

ومؤلفهمعروف بدقته عرضا وبحثا فى هذا الميدان ، وهو غنىعن التعريف •

نسأل الله العلى القدير أن ينفع القارىء بهذا الكتاب ، وأن يهدينا جميعا صراطه المستقيم ، انه هو السميع المجيب ،،

د• الحسينى هاشم

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

بسـم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

لله أبلغ الحمد وأعذب الثناء ، وعلى رسوله أفضل الصلاة وأتم السـلام وبعـد :

فقد تقدمت الحضارة المادية فى العصر الحديث تقدما كبيرا فاق كل ما كان يحلم به الانسان ، نتيجة لتقدم الكشوف العلمية الحديثة وقد استطاع الانسان — عن طريق العلم — أن ينفذ الى داخل الذرة، وأن يستعمل مافيها من طاقات جبارة رهيبة، وأن يهبط على سطح القمر وأن يتهيأ لارتياد كواكب المجموعة الشمسية وأن يشرع فى استغلال قيعان المحيطات ... مما جعل البشر يفتتنون بالعلم حتى كادوا يجعلونه صنما جديرا بالعبادة والتقديس ، ويقررون أنه على كل شىء قدير ، وفاتهم أن مجال العلم محدود ، وأنه اذا عرف جانبا من الظواهر المادية فانه لا يزال — وسيظل عاجزا — عن ادراك أسرار الحقائق المادية وما وراء المادية ، وأنه اذا أصاب حينا فانه يخطىء فى كثير من الأحايين ، طبقا لقوله تعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وأنه عاجز عن النفاذ الى ما وراء المادة حتى فى تكوين الانسان نفسه .

قال تعالى : « ولكن أكثر النـاس لا يعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

وحسب المفتونين بالعلم ما قاله آينشـــتاين أكبر علماء العصر الحديث :

« ان أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها ، تلك التى تستشعرها النفس عند الوقوف فى روعة أمام هذا الخفاء الكونى والاظلام ••• انه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبـــه ، واظلام لا نستطيع أن نطلع فجره ، ومع هذا ندرك أن وراءه شيئا هو الحكمة أحكم ما تكون ، ونحس أن وراءه شيئا هو الجمال أجمل ما يكون ، وهى حكمة ، وهو جمال ، لا تستطيع عقولنا القاصرة أن تدركهما ، الا فى صور بدائية أولية ، وهذا الاحساس بالحكمة وهذا الاحساس بالجمال فى روعة هو جوهر العبادة عند الخلائق •• ان دينى هو اعجابى — فى تواضع — بتلك الروح الســـامية التى لاحد لها ، تلك التى تتراءى فى التفصـــيلات الصغيرة القليلة ، التى تستطيع ادراكها عقولنا الضعيفة العاجزة ، وهو ايمانى العاطفى العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة ، تتجلى حيثما نظرنا فى هذا الكون المعجز للأفهـــام • ان هذا الايمـــان يؤلفه عندى معنى الله » •

واذا كان التقدم العلمى قد حل كثيرا من المشكلات المادية فقد أوجد عددا أكثر من المشكلات الاجتماعية ، التى تكاد تدمر البشرية تدميرا ، بما أوجدته من وســـائل التدمير والهلاك ، فى صور قنابل ذرية ، أو هيدروجينيـــة ، أو كوبالت مشـــــع ، أو غازات سامة ، أو جراثيم فتاكة ، اذا انطلقت من عقالها قضت على الجنس البشرى القضاء الأخير ، وانعكس هذا كله على الشعوب فزلزل كيانها ، وعلى الشباب فقاده الى الانحرافات

المتجلية فى جماعات الوجودية والخنافس والهيبيز والساخطين واللامعقولين •

والتقدم العلمى كان على أنقاض التخلف الروحى ، وبهذا اختل توازن الانسان المكون من مادة وروح : مادة تعيش فى نطاق العناصر الصماء أو الحيوان الأعجم ، وروح تتشوف الى الحق ، وتتطلع الى الخـــير ، وترنو الى الجمال ، وتتسامى الى ماوراء الغيب من أسرار عليا ، تملأ الوجدان بآيات من عوالم الملأ الأعلى تعجز العقول عن ادراكهـــا وتحديدها ، وان كانت تحسها فى أعماقها وفيما حولها — بفطرتها الطبيعية — فغمرها بالنور من حيث تدرى ولا تدرى • والتوازن بين المادة والروح هو علاج ماتعانيه البشرية الآن من تمزق وانحلال ، فان يدا واحدة لاتصفق ، وان جناحا واحدا لايحلق ، وان قدما واحدة لاتسبق •

لهذا كان الدين ضرورة حتمية ، تنبثق من الفطرة الطبيعية ، والدين القوى السليم هو الذى يقوم على دعائم ثلاث :

أولا : الايمان بقوة عليـــا مهيمنة قادرة ، تمثل الكمال المطلق ، تحسها الفطرة الطبيعية ، ويدركها العقل الرشيد ، ويؤكدها الوحى السماوى الصدوق •

ثانيا : الايمان باليوم الآخر يوم العدالة المطلقة ، التى تعاقب المسىء وتكافىء المحسن ، وتضـــع الموازين القسط •• « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » والايمان باليوم الآخر قائم على كمال القوة

العليا المسيطرة على الكون ، وعلى ما تتسم به من عدالة واحســـان •

ثالثا : العمل الصالح وهو ثمرة الايمان بالله والايمان باليوم الآخر ، والا كان ايمانا غير صحيح •

والاسلام هو الدين الذى قام شامخا على هذه الدعائم الثلاث ، وجمع بين المادية والروحية ، وبين الواقعية والمثالية ، وبين الدنيا والآخرة ، وراعى مصالح الأفراد ومصالح الجماعات، فكان بهذا أكمل وأتم الديانات ، وحينما تدرك البشرية حقائق هذا الدين القويم ، فانها تسرع الى اعتناقه ، وحينئذ يتم ظهوره على الدين كله ولو كره الكافرون •

وقد بدأ كبــار مفكرى العالم وفلاســفته يتطلعون الى الاسلام بوصفه شاطىء الأمان الوحيــد ، وحســبنا أن نذكر ما أعلنه الكاتب الكبير والمفكر العظيم « برنارد شو » من أن أوربا بدأت تحس حكمة محمد وتعشق دينه ، وسيكون دين محمد هو النظام الذى تقوم عليــه دعائم السلام ، وأن كثيرين من مواطنى ومن الأوربيين يقدسون تعاليم الاسلام ، ولذلك يمكننى أن أؤكد نبوءتى فأقول : ان بوادر العصر الاســلامى الأوربى قريبة لامحالة » •

وهذا ما حفزنى الى كتابة هذا البحث ، وأرجو أن يحقق ما قصدته من أهداف •

والله الهادى الى سواء الســبيل •

الفصل الأول

الدين نزعــة فطــرية

« فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله » •

ما هو الدين ؟ آراء علماء الاجتماع والفلاسفة وعلماء النفس والطبيعة والكيمياء والأحياء ، عناصر الدين ، الدين فطرة أصيلة منبثقة من جميع الغرائز •

قبل أن نصدر حكما فى قضية علمية ، ينبغى لنا أن نحدد بدقة عناصر القضية ، حتى لايكون هناك مجال للخلاف والشتات، وفى الموضوع الذى نبحثه الآن علينا أن نحدد معنى : « الدين » لأن معناه يختلف باختلاف العقول ، فهو عند البدائيين غيره عند المثقفين ، وهو عند الوثنيين غيره عند الموحدين ، ومعنــاه عند علماء النفس غيره عند كل من الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء الطبيعة والكيمياء والأحياء ، وان كان من الممكن أن يلتقى هؤلاء جميعا عند مفاهيم متقاربة ان لم يكن مفهوما واحدا •

ومن الخير أن نستعرض آراء بعض الطوائف المختلفة ، ثم نستشف ما بينها من صلات •

١ — ان معنى الدين لغويا عنــد العــرب هو : « العادة أو السيرة أو الحساب أو القهر أو الحكم أو السلطان أو الطاعة

أو الجزاء أو السياسة أو الرأى .

ومعناه عندهم اصطلاحيا هو : « وضع الهى سائق لذوى العقول باختيارهم اياه الى الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل ، وهذا يشمل العقائد والأعمال (١) وهذا التعريف خلاصة لأبحاث مسهبة عديدة لايتسع لها المجال .

٢ — أما علماء الاجتماع : فقد اختلفت آراؤهم فيه ، وان كانت تدور حول صلات الانسان بقوة عظمى يخشاها ويرجوها ، فيقدر شاتيل : أن الدين هو مجموع واجبات المخلوق نحو الخالق، ويرى دوركايم : أن الدين ماهو الا عبادة الفرد لسلطة أعلى ، هى : سلطة المجتمع ممثلا فى رمز خاص ، ويرى سبنسر : أن العنصر الأساسى فى الدين هو الايمان بالقدرة النهائية التى لايمكن تصور نهايتها الزمانية والمكانية ، ويقرر ماكس ميلر : أن الدين هو محاولة تصور ما لايمكن تصوره، والتعبير عما لايمكن التعبير عنه هو التطلع الى اللانهائى هو حب الله ، ويذكر ريفيل أن الدين هو توجيه الانسان سلوكه وفقا لشعوره بصلة بين روحه وروح خفية يعترف لها بالسلطان المطلق عليه ، وعلى سائر العالم ، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها ، على حين يقول جوبو الشعور الدينى هو الشعور بتبعيتنا لشيئات أخرى يدركها الانسان البدائى فى الكون ، ويذكر ميشيل مايبر : أن الدين هو جملة العقائد والوصايا التى يجب أن توجهنا فى سلوكنا مع الله ،

(١) مادة الدين فى كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ، وهذا التعريف منظور فيه الى الاسلام وحده دون بقية الديانات الوضعية أو السماوية .

ومع الناس وفى حق أنفسنا (١) .

٣ — أما الفلاسفة فمجال دراساتهم للدين يتسع اتساعا كبيرا بحسب نوازعهم المادية أو الروحية (٢) فيقرر موراى أن الدين هو الذى يجعلنا نتصل بقوة العالم العظمى ، ويذكر شوتويل : أن الدين ما هو الا الاستسلام للسر ، ويعرفه مارتن بأنه التقدير الرمزى لسر الوجود فى عبارات تدل على مصلحة الانسان كذات ، على حين يذكر ريناخ أن الدين مجموعة من الشكوك تعوق حرية عمل ملكاتنا ، ويتعمق الفيلسوف العلامة برجسون فى دراساته للديانات فيذكر : أن الديانات ترجع الى نوعين رئيسيين : ديانة استاتيكية مغلقة وهى خرافات وهمية قامت لتوطيد سلطة الحكم أو الجماعة ، والثانية مصدرها الحدس وهى ملكة فوق مستوى العقل تبلغ أسمى درجاتها عند الصفوة المختارة من أهل التجربة الصوفية السامية ، التى تنزع نحو العمل لصالح الانسانية ، وتجعل مثلها الأعلى الكمال والمحبة ، وتمتاز بأنها ليست وليدة الضغوط الاجتماعية أو الضرورة المقلقة ، وانما تصدر عن نزوع سام ، واستجابة لنداء الالهام الروحى والحدس الصوفى ، الذى يتبلور فى شكل تصور عقلى ،

(١) راجع هذه التعريفات وامثالها فى كتاب علم الاجتماع الدينى للاستاذ : أحمد الخشاب ص ٣٩—٧٦ مطبعة دار الحمامصى سنة ١٩٦٤ ، وكتاب الدين للدكتور : عبد الله دراز ص ٢٩—٣١ مطبعة السعادة سنة ١٩٦٩ .

(٢) راجع طائفة من هذه الآراء فى مباهج الفلسفة : تأليف ول ديورانت تعريب الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى مطبعة مصر سنة ١٩٥٦ جـ ٢ الفصل ٢١ .

ويتحول الى مذهب ابداعى اعتقادى ، ويتجلى هذا فى التخلص من أغلال العوائق المادية ، وعدم التقيد بالأمور العلمية ، وبهذا تتفتح القلوب لالهام الهى يستحوذ على جوهر وجودهم ، ويشيع فى جوانحهم الطمأنينة والسكينة ، ثم يصبحون مصدر اشعاع لهذه الانفعالات الجياشة ، بحب الانسانية المطلقة ، وعن هذا الطريق تنتقل الديانات المفتوحة الى روادها ومعتنقيها ، فتسوقهم الى آفاق واسعة تتخطى حدود الالتزامات المحلية الى المجالات الانسانية المطلقة ، حيث تختلط الارادة البشرية بالارادة الالهية (١) .

ويقابل هذا الرأى رأى الماديين الحسيين ، الذين يرون الدين ظاهرة عرضية أو ثمرة من ثمرات النشاط الانسانى ، الناتج عن الصراع المادى والاقتصادى ، الذى ينعكس فى مظهر من المظاهر الدينية أو الاجتماعية أو السياسية أو الفنية .

ولما كانت طريقة الانتاج تحدد العلاقات المادية والاقتصادية بين الناس فانها فى الوقت نفسه تتبنى المبادىء والأفكار الدينية

(١) الاجتماع الدينى ص ٨٤—٨٧ ويرى برجسون فى ضوء آرائه أن المسيحية هى المثل الأعلى للديانات ونأخذ عليه انه اعتمد على الحدس وحده ، وللحدس أثره فى الوصول الى المعرفة ، وقد تنبه الى هذا فلاسفة الصوفية الاسلامية قبل برجسون وسموا هذه الملكة بالبصيرة الملهمة وقد استوحوا هذا من الموهبة التى ذكرها القرآن الكريم باسم الحكمة وجعلها فرقانا يميز بين الحق والباطل ، وهى نور يقذفه الله فى قلب عبده المؤمن ، ولكن الحدس عند بعض الناس قد يكون مبنيا على الأوهام والأحلام ، ولهذا جمع الاسلام بينه وبين العقل فى ضوء الوحى السماوى فكان بهذا اكمل الديانات ، وقد نعود الى بسط هذا الراى بالتفصيل .

الملائمة ، وبذلك يبدو أن هذه الأفكار من وحى البيئة التى استجابت لها ، وتسعى الطبقة الحاكمة الى فرض سيطرتها باشاعة الأفكار الميتافيزيقية عن الأحكام المثالية ، ونشر المبادىء الدينية عن المحبة والزهد والرهبنة والتقشف والتسامى عن الماديات ، لينصُرف الناس عن الماديات الى ما يتعلق بموجود وهمى أسطورى ليتركوا للحكام ولرجال الدين حقوقهم المادية ، فينعم الحكام ورجال الدين بمناعم الحياة ، ويقنع العامة بما يتوهمونه من خيالات أسطورية عن حياة أخرى بعد هذه الحياة ، حافلة بالبهجة والنعيم فى غرفات الجنان . ولهذا وصف كارل ماركس الدين بأنه « أفيون الشعوب » لأنه يشل — فى رأيه — حركة تفكيرها ، ويصدها عن الكفاح الى التعلق بالخرافات والأوهام وقد هاجم كارل ماركس المسيحية لأنها بررت الرق والاستعباد ، وبثت فى النفوس روح الذل والخشوع والاستسلام ، وجذبت السذج الى الرهبنة ، وفرضت سلطان الكهنة والاقطاعيين والأشراف والنبلاء على الدهماء (١) .

(١) للماركسيين عذرهم فى مهاجمة المسيحية ، ولكنهم لاعذر لهم فى مهاجمة الاسلام ، فان رجال الكهنوت المسيحيين فرضوا سيطرتهم على العامة بما ابتدعوا من صكوك الغفران وسلطة الحرمان ، وبمساندتهم للحكام والأمراء فى الاستبداد بمصائر الشعوب ، أما الاسلام فيحارب الاستبداد والاحتكار واستعلاء الحكام والتحكم الطبقى ، وهو دين العمل والسعى فى مناكب الأرض واستغلال خيراتها للجميع ، وحرية التملك وضمان حقوق الانسان ، وهو مع اشادته بالأخرى ينحو الى التمتع بنعيم الدنيا فى غير اسراف أو كبرياء « قل من حرم زينةالله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » الأعراف ٣٢ .

٤ ـ أما علماء النفس فيجنح معظمهم الى أن الدين ظاهرة منبعثة عن مشاعر نفسية ضيقة ، يختلفون فى تحديد ينابيعها فى أعماق النفس البشرية ، فيذهب فرويد الى أن الاحساس الدينى فى الانسان انما هو النتيجة النهائية لعملية ديناميكية عقلية تكمن بدايتها فى اللاشعور ، منبثقة عن غريزة الخوف والغريزة الجنسية ، فان الانسان يحس ضعفه أمام القوى الهائلة التى تواجهه ، ويحرص على حماية نفسه منها ، فيحاول استرضاءها عن طريق العبادة وتقديم القرابين ، أما دور الغريزة الجنسية فيفسر أثرها فى الشعور النفسى بأن زعيم القبيلة كان يختص بنسائها ويمنع أفراد القبيلة من الاتصال بهن فى العصور السحيقة ، وكان زعيم القبيلة هو والدها أو بمنزلة الوالد ، فكان أفراد القبيلة يعجبون بقوته ولكنهم يكرهونه فى الوقت نفسه • ومن هذا التناقض الوجدانى نشأت عقدة أوديب (١) ، وتجمع شباب القبيلة وقتلوا أباهم وأكلوه ليتقمصوا شخصيته القوية ، وتشابكت دوافع الحب نحو الأب القتيل ونوازع الخشية من روحه الباقية فأقاموا رمزا لهذا الأب سموه الطوطم ، ويكون عادة حيوانا أو نباتا أو قوة طبيعية هذا هو منشأ الدين عند فرويد •

ونلاحظ عليه أنه يقحم الغريزة الجنسية فى جميع آرائه ، وأنه يقيم دراساته على فروض استوحاها مما شاع بين بعض

(١) أسطورة اغريقية تزعم ان أوديب قتل أباه وتزوج أمه دون أن يعلم ، فلما علم فقأ عينيه •

القبائل البدائية من عبادة الحيوان ، وجاراه بعض علماء النفس وعلماء الاجتماع ، وأقاموا مذهبا سموه الطوطمية ولكن بعض علماء النفس خالفه فى الطوطمية وان كان قد وافقه فى موضوع غريزة الخوف ، ومن أبرز هؤلاء العلماء مكدوجل وفلوجيل فى كتابه القيم Man's Morals and Society وهو يعلل الخوف بأن الانسان يشعر فى قرارة نفسه بعجزه عن الوصول الى مستوى الذات العليا التى يتطلع الى تحقيقها ، فيحس احساس المذنب ، ويرى أن تطهيره لايتم الا عن طريق العقاب ، فيرتاح اذا أصابه مكروه (١) ويقرر وليم جيمس فى كتابه القيم أنواع التجارب الدينية أن الدين مشاعر وخبرات بنى الانسان منفردين ما اعتبروا أنفسهم فى علاقة مع ما يرونه الها • أما ما هو الهى فهو الحقيقة الأولى التى يحس الفرد نفسه مدفوعا الى الاستجابة لها استجابة تتصف بالمهابة والجد دون أى تذمر أو استهزاء • وقد جمع لوبا ثمانية وأربعين تعريفا للدين استعرضها ثاولس واستخلص منها ثلاثة هامة ، أولها تعريف فويزر أن الدين استرضاء أو كسب قوة أسمى من الانسان ، يراها ضابطة وموجهة مجرى الطبيعة والحياة الانسانية ، وثانيها تعريف مارتينيو أنه الايمان بالله يعيش أبدا بعقل وارادة الهيين يحكمان الكون ويقومان العلاقات الأخلاقية بين البشر ، والثالث تعريف متجارت

(١) الاسلام ضرورة عالمية للاستاذ زاهر الزغبى ، طبع الهيئة المصرية العامة سنة ١٩٧١ ص ٤٥ ، ٤٦ .

أنه انفعال يقوم على الايمان بالانسجام بين أنفسنا وبين الكون علمة • ويرى هنرى لنك أن الدين هو الايمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة هى قوة الله مدبر الكون وخالق السموات ، والاقتناع بالدستور الذى سنه فى كتبه المتعاقبة ، وقد لاحظ أن كل من اعتنق دينا يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لادين له (١) •

ويقول يونج : من اللازم أن نعيد دعامة القيم الروحية فى العلاج ، فان واحدا من بين مرضاى فوق الأربعين لم يحل به المرض الا لأنه افتقد ما تمنحه الأديان لمعتنقيها ، وما استعاد أحد منهم صحته الا باستعادته هذه القيم الدينية (٢) •

٥ — أما علماء الطبيعة والكيمياء والأحياء ، فهم لايؤمنون الا بما يقع تحت حواسهم ، أو يخضع لتجاربهم المادية ، أو تنتهى بهم اليه العلوم الرياضية ، وما عدا هذا فهو خارج عن نطاق أبحاثهم ، وان كانت الكشوف العلمية تدفع بعضهم الى اعلان شعوره بقوة غيبية قادرة تخلق وتوجه طبقا لقوانين ثابتة أبدعتها ، وقد استطاع العلم أن يدرك طرفا منها ، وعجز عن ادراك الكثرة الكاثرة منها ، وفى هذا يقول العلامة نيوتن : ان العقل الانسانى ليس الا طفلا صغيرا يلهو فى الرمال على شاطىء محيط الحقيقة •

---

(١) العودة الى الايمان ، تعريب الدكتور ثروت عكاشة طبع دار المعارف سنة ١٩٥٩ ص ٢٦ •

(٢) الفلسفة الأخلاقية للدكتور أحمد محمود صبحى ، طبع دار المعارف سنة ١٩٦٩ ص ٢٥١ •

ويقول جيمس جنس : ان الكون من الاتساع والضخامة والنظام بحيث لو سار فيه كوكب أو نجم فى أى اتجاه بأى سرعة ولأى زمن فانه لن يصطدم بكوكب آخر ، وان حدث هذا فانه يكون شيئا نادرا جدا ، كما يصطدم عصفوران أحدهما فى استراليا والآخر فى أفريقيا •

ويقول اينشتين أكبر علماء العصر الحديث : كل ما أعرفه — وهو قليل جدا جدا — يدل على وجود الله ، ان أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها تلك التى تستشعرها النفس عند الوقوف فى روعة أمام هذا الخفاء الكونى والاظلام ، ان الذى لاتجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته حى كميت • انه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه ، واظلام لانستطيع أن نطالع فجره ، ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئا هو الحكمة أحكم ما تكون ، ونحس أن وراءه شيئا هو الجمال أجمل ما يكون ، وهى حكمة وهو جمال لانستطيع أن تدركها عقولنا القاصرة الا فى صورة بدائية أولية ، وهذا الادراك للحكمة ، وهذا الاحساس بالجمال فى روعة هو جوهر التعبد عند الخلائق •• ان الشعور الدينى الذى يستشعره الباحث فى الكون هو أقوى حافز على البحث العلمى وأنبل حافز •• ان دينى هو اعجابى فى تواضع بتلك الروح السامية التى لاحد لها ، تلك التى تتراءى فى التفصيلات الصغيرة القليلة التى تستطيع عقولنا الضعيفة العاجزة ادراكها• وهو ايمانى العاطفى العميق بوجود قوة عاقلة مهيمنة تتراءى

حيثما نظرنا فى هذا الكون المعجز للأفهام ، ان هذا يؤلف عندى معنى الله » (١) •

ونلاحظ من آراء الباحثين جميعا أنهم يلتقون فى دراساتهم على تقرير عدة حقائق هى :

أولا : أن للدين تأثيرا عميقـــا فى نفوس الأفراد والمجتمعات ، وأنه ذو أثر عميق فى تطور المدنيـــة والعمران وتوجيـــه الشعوب •

ثانيا : أن العناصر الدينية لابد فيها من قوة معبودة لها سيطرتها المطلقة فى جلب المنافع ودفع الأضرار ، ومن جماعة خاضعة لهـــذه القوة ، ومن طقوس تنظم صـــلات هذه الجماعة بخالقها المعبود ، وأن هذه الطقوس تختلف من دين الى دين ، وتبلغ غاية سموها فى الديانات السماوية •

ثالثا : أن أحق الأديان بالتسلط والبقاء هو أعلاها سموا بفكرة الاله ، وأسهلها فهما على قدرة الأفكار وأكثرها تحقيقـــا لاحتياجات الفرد الروحيـــة والجســمية والاجتماعيـــة والتنسيق بينه وبين المجتمع فيما لـــكل منهما من حقوق وما عليه من واجبات •

رابعا : أن الدين فطرة طبيعية فى النفس البشرية منبعثـــة عن غريزة الخوف من المجهول وغريزة حب الاستطلاع وغريزة حب البقاء واذا كان بعض الملحدين يحاول كبح غرائزه

---

(١) مع الله فى السماء للدكتور أحمد زكى ، مطابع دار الهلال سنة ١٩٦٦ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ •

فانها لاتلبث أن تظهر وبخاصة فى أوقات الضعف أو عند الخوف والى هذا أشار فلوطارخس بقوله: قد يكون قيام مدينة بغير أرض تملكها أيسر من قيام دولة بغير دين • واذا كان بعض الباحثين يزعم أن قيام دولة لادينية أمر عملى فان « فولتير » يرى أن أى ملحد اذا عين حاكما على ستمائة فلاح فانه يبشر بينهم فى الحال بالعقاب الدينى وكان نابليون يقول : « لولم يوجد البابا لكنت اخترعته » وهو شبيه بقول فولتير « اذا لم يكن الله موجودا فينبغى أن نخترعه » (١) •

واذا صرفنا النظر عن سخرية الساخرين فاننا نخرج من دراسة الباحثين أن الدين نزعة فطرية كما أنه ضرورة حتميـــة يقول محرر معجم لاروس : « ان الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها الى الحيـــاة الحيوانية وان الاهتمام بالمعنى الالهى وبما فوق الطبيعة هـــو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية ••• ان هذه الغريزة لا تخـــتفى بل لا تضـــعف ولا تذبل الا فى فترات الاسراف فى الحضارة وعند قليل جدا من الأفراد (٢) ويقرر ماكس ميلر ان الناس كانوا فى أقدم عهودهم على التوحيد الخالص وأن الوثنية

---

(١) مباهج الفلســـفة تعريب الدكتور احمـــد فؤاد الاهوانى مطبعة مصر سنة ١٩٥٦ ص ٢٦٢ — ٢٧٧ •

(٢) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز مطبعة السعادة سنة ١٩٦٩ ص ٨٤ •

عارضة عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين (١) أليس هذا مصداقا لقوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات ، بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » (٢) .

ونزعة التدين فطرة أصيلة أودعها الله فى طبيعة الانسان لا يمكن أن يقوم مجتمع بدونها وفى هذا يقول هنرى برجسون : لقد وجدت وتوجد جماعات انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة . ويقول بارتيلمى سانت هيلير : « ما العالم ؟ ما الانسان ؟ من أين جاء ؟ ما السماء ؟ ما الأرض ؟ من صنعهما ؟ من يديرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ... هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع الا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة، ثابتة أو متحولة » ويقول تشاشوان : مهما يكن تقدمنا العجيب فى العصر الحاضر علميا وصناعيا واقتصاديا واجتماعيا ومهما يكن اندفاعنا فى هذه الحركة العظيمة للحياة العملية وللجهاد والتنافس فى سبيل مغيشتنا ومعيشة ذوينا فان عقولنا فى أوقات السكون والهدوء عظاما كنا أو متواضعين خيارا كنا أو أشرارا ، تعود الى

(١) يوم الاسلام للدكتور أحمد أمين مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ص ١٥ .
(٢) سورة البقرة ٢١٣ .

التأمل فى هذه المسائل الأزلية : لم ؟ وكيف كان وجودنا ؟ وكيف كان وجود هذا العالم ؟ والى التفكير فى العلل الأولى أو الثانية وفى حقوقنا وواجباتنا (١) وهى أمور كلها متصلة بالدين. ويقرر سالمون ريتاك أنه ليس أمام الديانات مستقبل ممتد فحسب بل لنا أن نكون على يقين من أنه سيبقى شىء منها أبدا ذلك لأنه سيبقى فى الكون دائما أسرار ومجهولات ولأن العلم لن يحقق أبدا مهمته على وجه الكمال .

ويذكر « أرنست رينان » فى كتابه تاريخ الأديان : « انه من الممكن أن يضمحل كل شىء نحبه ، وأن نبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يريد أن يحصر الفكر الانسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية» (٢).

ولا عجب فى أن يكون الدين نزعة فطرية فى كل نفس بشرية ، لأنه يقوم على عدة نزعات نفسية عميقة ، هى غريزة الخوف من المجهول أو المعلوم ، وغريزة حب الاستطلاع التى تلح على الانسان الحاحا متواصلا ليظفر بمعرفة كنهه ، ومن أين جاء ؟ والى أين ينتهى ؟ وما هى القوة العظمى المسيطرة على الأكوان؟ انه يدركها بحواسه ، متجلية فى الكائنات كما يدركها بعقله المتطلع الى ما وراء هذه الكائنات ، الى جانب غرائز أخرى عديدة من أهمها غريزة الخلاص والوالدية والجنسية والنفور والخضوع

(١) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٤ ، ٨٥ .
(٢) مبادىء علم الاجتماع للدكتور محمود قاسم نشرته مكتبة الانجلو سنة ١٩٥١ ص ١١٥ .

والاستغاثة ، بل تكاد النزعة الدينية تتصل بجميع الغرائز التى تناولها العالم النفسى الشهير مكدوجل بافاضة واسهاب ، ثم تتصل اتصالا قويا بجميع المشاعر العميقة مثل الحب والاعجاب ، ويذهب كل من كومت و جويو و فان اند ، الى أن هناك بذورا للعاطفة الدينية حتى لدى الحيوان مثل فزع البهائم أمام الكوارث الطبيعية ، أو اقتراب الموت ، ومثل عبادة البهائم عبادة صامتة للعبقرية الانسانية ، وان كان بعض علماء النفس يرفضون هذا ويرون الدين ظاهرة انسانية محضة يتميز بها الجنس البشرى ، ولكن ظاهرة فزع الحيوان قبل ظهور الكوارث الطبيعية أمر مشاهد ، فان الطيور تفزع وتفر هاربة الى أعشاشها قبل أن يدرك الانسان أن عاصفة مدمرة توشك أن تحل ، كما أن الخيل شوهدت جافلة تدق الأرض بحوافرها فى فزع قبيل زلزال أغادير بالمغرب ، والعامة فى مصر يتشاءمون حينما تعوى الكلاب .. وقد نفسر قوله تعالى « ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » (١) وقوله تعالى « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » (٢) وقوله تعالى « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب » (٣) .

(١) سورة النور ٤١ .
(٢) سورة الاسراء ٤٤ .
(٣) سورة الحج ١٨ .

قد نفسر هذه الآيات على ظاهرها بما يتفق مع رأى « كومت » و « جوبر » « واند » .

وقد نؤولها بتجارب هذه الكائنات واتساقها مع السنن الكونية مراعاة لما ذهب اليه بعض العلماء ، ومهما يكن من أمر ، فلاشك أن النزعة الدينية فطرة طبيعية عند البشر والى هذا أشار « كورنو » فى كتابه تسلسل الأفكار الرئيسية مقررا أن بين الغريزة الدينية والأفكار التى تعبر عنها من الممكن أن تولد الديانات وان تموت وتحل محلها ديانات أخرى ، ولكن ما يموت هو مجموعة الأفكار والعقائد والأساطير ، أما الغريزة الدينية وهى غريزة فطرية فتبقى دائما لأنها تخلق صورا دينية جديدة على أنقاض الصور القديمة ويحرص علم النفس على تفسير هذه الغريزة ، ويهتم علماء الاجتماع بما تثيره هذه الغريزة من مختلف الصور التى تتشكل بها الأفكار الدينية (١) .

وكل ما قرره هؤلاء الفلاسفة أشار اليه القرآن الكريم وقدم عليه الحجة البالغة حيث قال : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢) . ان الفطرة الطبيعية تتجلى فى الطفل صريحة دون تكلف أو تصنع ، وقد تتبع علماء النفس تطور الفكرة الدينية عند الأطفال ونموها ، وسجلوا معالمها ، ولم يختلف أحد منهم فى وجودها ، وان كانوا يختلفون

(١) مبادىء علم الاجتماع الدينى ص ١٥٦ .
(٢) سور الروم ٣٠ .

فى صورها المتوالية وتعليل هذه الصور ، (١) كما تتجلى الفطرة الطبيعية عند الشعوب فى بدء تطورها ، فان النزعة الفطـرية تبدو سافرة عند هذه الشعوب وان كان تخلفها الفكرى يخلط هذه النزعة الأصيلة بالأساطير والاوهام .

ومما سجله علماء الاجتماع أن أقزام افريقيا هم أشـد الشعوب الهمجية تخلفا وأقدمها عهدا بالتدين وهم — مع هذا — يؤمنون بموجود أعظم فى كل مكان ، وهو اله خالق مسيطر على العالم يتجهون اليه بالعبادة (٢) ، وقد سجل القرآن الكريم هذا قبل أن يسجله علماء الاجتماع بقرون عديدة حيث وصف العرب فى جاهليتهم الأولى وقد اختلطت النزعة الفطرية الدينية فيهم برموز أسطورية تمثلت فيما يقدسونه من أصـنام فاذا سئلوا عن ذلك قالوا : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٣) .

فهم يعرفون الله ويقدسونه ولكنهم يتقربون اليه بتقديس هذه الأصنام قال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومـن يدبر الأمـر فسـيقولون الله ، فقـل

---

(١) من الكتب القيمة التى عالجت هذا الموضوع كتاب تطور الشعور الدينى عند الطفل والمراهق للدكتور عبد المنعم عبد العزيز المليجى طبع دار المعارف سنة ١٩٥٥ .

(٢) عالج هذا الموضوع بإفاضة العلامة دتشان فى كتابـه الديانات فى افريقيا وقد صدرت ترجمته العربية فى مسـلسلة الالف كتاب .

(٣) سورة الزمر ٣

أفلا تتقون»(١) وقال جل شأنه: « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون» (٢).

« ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون » (٣) وعدم عقلهم قائم على أنهم لم يستجيبوا للفطرة ولم يتساموا عن الأوهام والخـرافات ، فشوهوا هذا النبع النقى الصـافى بما مزجوه من أقذار ، وكما تتجلى النوازع الفطرية عند الأطفال وعند الشعوب فى بدء تطورها فانها تتجلى عند جميع الناس من بدائيين أو علماء فلاسفة عند الخطر المخيف لأن غريزة الخوف حينما تسيطر على النفوس تجـردها من كل ما يستر نزعاتها أو يحجبها عن الأنظار من تجمـل أو تكلف مصطنع أو فـكرة متسلطة أو مراعاة عرف أو قانون ، وهنا تبدو النفس البشرية على فطرتها الطبيعية دون سـتار ، فالمرض الشديد والزلازل والبراكين والحروب المدمرة والأعاصير المحطمة توجه النفوس جميعا الى التطلع الى القوة العظمى المهيمنـة على الأكوان ، تلتمس منها الحماية ، وتنشد فى ظلها الأمان ، ممتلئة بالايمان ، فاذا زال الخوف عادت غالبيتها الى ما كانت فيه من انحرافات صنعتها النظريات الفلسـفية أو العلمية التى تقنع بالماديات ولا تتطلع الى ما وراءها من آفاق ، الا من هدى الله — وهذا

---

(١) سورة يونس ٣١ .
(٢) العنكبوت ٦١ .
(٣) العنكبوت ٦٣ .

كله سجله القرآن الكريم حيث وصف فرعون وقومه حينما حل بهم العذاب « ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل • فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه اذا هم ينكثون » (١) •

وقريش حينما بالغت فى ايذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ، أصابتهم الشدائد ، واحتبس عنهم المطر ، وجفت الأرض ، واكفهر الجو بما ينذر بخطر شديد ، فزعوا وتضرعوا الى الله وأعلنوا ايمانهم به كما قال تعالى : « فارتقب يوم تأتى (٢) السماء بدخان مبين • يغشى الناس هذا عذاب أليم • ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون • أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين • ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون • انا كاشفو العذاب قليلا انكم عائدون • يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » (٣) •

ان من طبيعة الانسان أن يستر نوازعه مجاراة للعرف أو القانون أو القيم الخلقية ، أو مجاراة لنظريات اجتماعية أو علمية أو فلسفية وذلك عند الاطمئنان ولكنه عند الانفعالات

(١) الأعراف ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢) التعبير بصيغة الفعل المضارع للانذار بتجدد العقاب ان لم يفيئوا الى الصواب وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعا الله أن يصيبهم بشىء من الشدائد لعلهم يتوبون .

(٣) سورة الدخان ١٠ — ١٦ .

الشديدة تظهر نوازعه الفطرية دون ستار قال تعالى : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » (١) وقال جل شأنه عارضا صورة الناس عند الفزع وموقفهم عند الأمان : « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما • واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا • أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا • أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » (٢) •

ولكن هناك فريقا من الناس يتعظمون بالشدائد ، فيعودون الى الايمان ويتمسكون به عند الأمان وذلك مثل قوم يونس : فانهم « لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين » (٣) وهناك فريق آخر يؤمنون عند الشدائد ويكفرون عند الأمان قال تعالى : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين • فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير

(١) سورة فصلت ٥١ .

(٢) سورة الاسراء ٦٦ — ٦٩ .

(٣) سورة يونس ٩٨ .

الحق .. » (١) وقال سبحانه « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (٢) .

وقد نبهنا القرآن الكريم الى عناد فرعون وطغيانه وجبره « حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين » (٣) وعند ما عاد الى فطرته الطبيعية التى كان جبروته وطغيانه قد ران عليها فأفسدها أى افساد ولكنه عاد اليها بعد فوات الأوان .

وقد نبهنا القرآن الكريم الى أن هذه الفطرة تتوارى خلف أكداس الذنوب والآثام ، الى أن يحين الخطر فتبرز واضحة سافرة دون رين أو حجاب .

روى ابن جرير والترمذى والنسائى وابن ماجة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان العبد اذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب منها صقل قلبه وان زاد زادت فذلك قول الله تعالى « كلابل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٤) وفطرة التدين هى التى أشارت اليها الآية الكريمة « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » (٥) أى أودع فى فطرتهم

(١) سورة يونس ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) سورة يونس ١٢ .
(٣) سورة يونس ٩٠ .
(٤) المطففون ١٤ .
(٥) الأعراف ١٧٢ .

الايمان بالله وأن عليهم أن يعودوا الى هذه الفطرة ولا يخرجوا عليها بأى حال ويذكرهم الله بهذا فى قوله : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله » (١) ولعل هذا ما عناه الحديث الشريف « البر ما سكنت اليه النفس واطمأن اليه القلب ، والاثم مالم تسكن اليه النفس ولم يطمئن اليه القلب ، وان أفتاك المفتون » رواه الامام أحمد ، وفى رواية للامام البخارى فى التاريخ « استفت نفسك وان أفتاك المفتون » — ونحن نعلم أن الفطرة قد تنحرف ، فاذا رجعنا اليها فلابد أن يكون الرجوع فى ضوء القرآن الكريم والحديث الشريف .

(١) المائدة ٧ .

الفصل الثانى

الدين ضرورة حتمـــــية

الدين ضرورة نفسية واجتماعية ،
الدين علاج نفسى ووقاية صحية ،
لا الضوابط الخلقية ولا القانونية
ولا العلميـــة مغـــنية عن الدين —
لا بديل للعقيدة الدينية .

ذكرنا فى الفصل السابق أن الدين نزعة فطرية ، وقد اعترف بهذا جمهرة العلماء المحدثين ، والخلاف بينهم انما يقوم على دراسة هذه الظاهرة وتطورها ، وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة قبلهـــم بأكثر من نحو ثلاثة عشر قرنا ، وفى هذا أكبر الأدلة على أنه من عند الله ، والا فمن أنبأ هذا النبى الأمى بحقيقة هذه المشكلة ، التى استنفدت طاقات العلماء المحدثين .

ومن الآيات القرآنية الحاسمة فى هذا الموضوع ، قوله تعالى : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهــورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا .. » (١) واذا أخذنا بظاهر اللفظ — كما فعلت طائفة من المفسرين — فاننا نفهم من الآية الكريمة أن الله سبحانه خلق الأرواح قبل خلق الأجسام ، وأنه أخذ عليها العهد بالايمان به ، فلما ظهرت الى الوجود فى أجسامها المادية ، كان عليهـــا أن تفى بعهد الخلاق

---

(١) سورة الأعراف ١٧٢ .

العظيم ، واذا أولنا الآية — كمـــا أولتها طائفة من المفسرين — فاننا نفهم منها أن الله أودع فى طبائع النفوس البشرية نزعة الايمان العميق ، والآية فى كلتا الحالتين تقرر : أن النفـــوس البشرية منطوية على الايمان ، وان كابر فى هذه الحقيقة بعض المكابرين المعاندين ، والى هذا أشار الحديث الشريف : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجســـانه » (١) وقد شرحـــنا هذا فى الفصـــل السابق .

وفى هذا الفصـــل نحاول الاجابة عن هذا السؤال : هل الدين ضرورة حتمية ؟ وهل هناك ما يحل محله أو يغنى عنه ؟ واذا كان التدين غريزة فهل ينبغى لنا كبحها أو التسامى بها ؟ وقبل الاجابة عن هذه الأسئلة ، علينا أن نعرف ما هو الهدف الأساسى من الدين ؟

ان قوة الانسان محدودة ، ومداركه محدودة ، وأيامه على هذا الكوكب الأرضى محدودة ، وهو لايدرى من أين جـــاء ؟ ولا الى أين ينتهى ؟ ولا يعرف كيف تم هذا ؟ ولا يدرك الحكمة من وراء هذا كله . والى هذا تشير الآية الكريمة : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » (٢) وهو — مع هذه الحيرة — يحس — فى الكون الخارجى ، وفى قرارة نفسه —

---

(١) حديث صحيح رواه ابو يعلى فى مسنـــده ، والطبرانى فى الكبير ، والبيهقى فى السنن .
(٢) سورة الكهف ٥١

وجود قوة عظمى مهيمنة مدبرة يمتد سلطانها دون قيود أو حدود، بحيث تشمله ، كما تشمل الأرض والسموات ، وتسيطر على الماضى والحاضر ، والمستقبل القريب أو البعيد ، وهو بفطرته الطبيعية يلجأ اليها ملتمسا المعونة والتأييد ، والحماية من الشرور والآثام ، والأخطار المحيقة به ، المتجهة اليه من حيث يدرى ولا يدرى ، يستوى فى هذا جهال الأميين وكبار الباحثين ، وهذا هو جوهر العبادة والتقديس •

والدين هو الذى ينظم هذه العلاقة القائمة بين الخالق والمخلوق ، والهدف الأكبر منه العبادة ، وهى تحقيق السعادة الممكنة فى هذه الحياة وما بعدها ، للافراد والجماعات ، فاذا جردنا الانسان من عقيدته الدينية التى تمنحه العزاء عما يقاسيه من آلام ، وتسلكه فى عداد الأنعام ، فتجعله حيوانا يأكل ويتناسل ، ثم ينفق ويتلاشى الى غير رجعة ، فأى حياة يحياها هذا الانسان ؟ ندع الاجابة عن هذا السؤال الى كانت أكبر فلاسفة العصر الحديث ، حيث يقول : لنأخذ حالة انسان فاضل يجد نفسه خاضعا لالحاح الاعتقاد ، انه لايوجد اله ولا حياة أخرى وراء هذه الحياة ، فكيف يقدر مصيره الفردى تقديرا مستمدا من القانون الخلقى ، الذى يوحى اليه العمل ؟ انه يرى أن ذلك الاعتقاد لن يجلب له أية فائدة شخصية ، لا فى هذه الحياة ولا فى حياة أخرى بطبيعة الحال ، بل انه على العكس يرى أن اراداته يمكن أن تكون باعثة على الخير ، على حين

توجه القوانين الأزلية جميع طاقاته ، فهو مجبر فى كل أفعاله ، وسيجد آخرين ممن يحيطون به يخادعون ويغدرون ، ويستعملون العنف والقسوة ، على حين يكون هو نفسه أمينا مسالما ، ولا يعدم فيمن حوله بضعة أفراد فضلاء مثله ، ولكنهم يتعرضون لقسوة الطبيعة التى لاتحفل بالقيم المثالية •• وبعد هذا يتساوى الجميع — أشرارا وأخيارا — حينما يدهمهم الموت ، ويلقى بهم فى قبور فسيحة بلا تفرقة •

انه لن يستطيع الاستجابة للقوانين الأخلاقية بسبب المصير الى ظلام العدم اللانهائى ، واذا أراد أن يتجنب هذا وجب عليه الايمان بوجود خالق للكون هو الله •

كما يقرر : أنه اذا كان للوجود الانسانى قيمة ، فلابد أن يكون للعالم غاية ، •• ولابد من وجود سيد أعلى يشرع فى مملكة خلقية من الشرائع ذات الأهداف المثالية ما يتسنى به تحقيق الخير الأسمى ، تحت رعايته وسيطرته على الكون كله « كما يقرر فى بحث آخر قصور الارادة الانسانية عن تحقيق القانون الخلقى ، وأن الله وحده هو الذى تتحقق فيه الصلات المطلقة بين الارادة الالهية والقانون الخلقى » •

وفى كلام كانت ما يغنى عن الرد على من قالوا : ان القوانين الخلقية النابعة من الضمير حينما يلتزمها الانسان تغنيه عن العقيدة الدينية ، وان القوانين الخلقية لا تقوم على مجرد السلطة المقارنة لها ، بل تقوم على ادراك ما يصاحب تطبيقها من منفعة ،

وما ينشأ عن تركها من أضرار • ولكن من الذى يحدد المنافع ويوضح الأضرار ؟ فكم من عمل ظاهره النفع أو ظاهره الشر ، ولكنه ينتج عكس ما توقعناه (١) وقد تكون المنفعة خاصة بالفرد ولكنها ضارة للمجتمع ، وقد تكون وقتية يعقبها شر كبير • ويبالغ أميل دوركايم فيرى فى كتابه « التربية الخلقية » أن القاعدة الخلقية يجب أن يكون الباعث على احترامها واجبا دون النتائج التى تترتب عليها ، وهذه أحلام فلاسفة ، اذا فرضنا تحققها فى بضعة أفراد ممتازين ، فانها لا سبيل الى تحقيقها فى المجتمعات • ثم لنا أن نتساءل عمن يضع القوانين الخلقية ؟ ان الفلاسفة قد اختلفوا ، وسيظلون مختلفين فى تقييم الفضائل وتحديد الرذائل ، ومن يرجع الى تاريخ الفلسفة وعلم الأخلاق سيرى طوفانا من الآراء المتضاربة المتشابكة ، التى تقود الى الفوضى والدمار •

وفى هذا يقول ول ديورانت : ان الشك يبعث على التوقف والضيق ، والايمان يدفع الى البسط ، ويحسن الشهية والدورة الدموية ، والواقع أن كل متشكك يشكو معدته ، ان الاعتقاد أمر طبيعى ، وهو ينشأ مباشرة من الحاجات الفطرية والعاطفية ، من التعطش الى حفظ الذات والثواب والمحبة والأمن ، وفى بعض الأحيان يغمرنا الشكر على النعمة حتى نود أن يكون لروح العالم

(١) قال تعالى : « وعسى ان تكرهو شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهــو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون » البقرة ٢١٦ •

آذان يسمع بها آيات شكرنا • ويقول نيتشــه : « ان الطريقة التى تتقلب بها المصائب حظوظا حسنة أغرته بالاعتقاد فى الله ، ان الدين لم ينزع عن الموت مافيه من ألم فقط ، بل ملأ الحياة جمالا بالطقوس والبناء والنحت والنقش والدراما •• لقد بدل مأساة الحياة الحقيرة الى رحلة شاعرية ، يحج فيها المرء الى نهاية شريفة ، وبغير الدين تصبح الحياة سخيفة •• والدين يؤدى الى اســتقرار الأسرة بمــا يربط أفرادها به من روابط مقدسة ، ثم الى استقرار الدولة تبعا لذلك •• » (١) •

ان ضعف الوازع الدينى يؤدى الى انهيار خلقى ، يبدو واضحا فى الانحلال الخلقى المتفشى الآن بين طوائف الخنافس والهيبيز والوجوديين وجماعات الساخطين ومستعمرات العراة من أجيال مكتئبة تتقلب فى القذارة الحسية والخلقية : مما جعل نوماس هاردى يتســاءل عن « الكآبة المزمنــة التى أخذت فى الاستيلاء على الشعوب المتحضرة مع زوال اعتقادها فى سلطة خــيرة » يقصد بها سلطة الدين ، ومن هنا كانت مهمــة علم الأخلاق قاصرة قصــورا تاما عن أداء دور الدين ، سواء بين الأفراد أو الجماعات ، ويمتاز الدين بأنه يحــدد الفضــائل والرذائل تحديدا دقيقا ثابتا لا مجال فيه للبس ولا ابهام ، والى هذا أشار الحديث الشريف : « الحــلال بين والحــرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى

(١) مباهج الفلسفة تعريب الدكتور أحمــد فؤاد الآهــوانى جـ ٢ ص ٢٧٤ — ٢٧٦

الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وان حمى الله تعالى فى أرضه محارمه » (١) ، فالحديث الشريف يوضح الأمور توضيحا دقيقا ، فهناك شعائر بينة أمر الله بها ، وهناك محارم واضحة نهى الله عنها ، وهناك أمور لم يرد فيها تعيين دقيق يلتبس فيها الأمر على بعض المؤمنين ، وعليهم أن يسألوا فيها أهل الذكر كما أشار القرآن الكريم « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (٢) والى أن يفتى فيها أهل الذكر فالأحوط فى الدين تجنبها اتقاء للشبهات ، ومن هنا اتضح الصراط المستقيم « صراط العزيز الحميد • الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض » (٣) واتضح الميزان الدقيق « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » (٤) •

ومن أهم آثار الدين أنه يبدد الأحزان ، ويسوق العزاء ، ويبتعث الآمال ، وييسر مشكلات الحياة ، ويبعث فى النفوس الثقة والاطمئنان والأمان ، ولما كان القلق النفسى يدمر الحياة ، ويمزق النفوس ويجلب الأمراض النفسية والجسمية ، فان علاجه الوحيد هو : بث الاطمئنان فى النفوس ، والى هذا أشار العالم النفسانى الشهير « هنرى لنك » الذى أجرى هو ومعاونوه عشرات الآلاف من التجارب النفسية على نحو عشرة آلاف

(١) رواه الشيخان وأصحاب الصحاح •
(٢) سورة النحل ٤٣ •
(٣) ابراهيم ١ ، ٢ •
(٤) الشورى ١٧ •

شخص ، تلبية لطلب مؤسسة كارينجى ، التى وضعت بين يديه مائتى ألف دورلار ، وقد خرج من تجاربه بهذه النتيجة « سجلت تقريرا شخصيا شاملا لكل فرد منهم ، وهنا بدأ ادراكى لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الانسان ، ووجدت من نفسى استعدادا لمضاهاة تجاربى السابقة على مرضاى ، بالنتائج الباهرة التى تمت بها تلك الاختبارات العظيمة ، التى توليت الاشراف عليها ، وقد استخلصت من هذه الاختبارات نتيجة هامة ، ولو أنها لم تنشر فى التقرير النهائى ، وهذه النتيجة هى : أن كل من يعتنق دينا ، أو يتردد على دار للعبادة ، يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له ، أو لا يزاول أى عبادة » (١) •

أليس هذا مصداقا لما قرره القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا حيث يقول : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (٢) والاسلام يحض المؤمنين به حضا على توكيد الصلات الوثيقة بفاطر الأرض والسموات ، لأنه مصدر الأمن والامان ، ويوضح التبادل المتوالى بين رحمات الخالق وعبادة المخلوقين ، فالله تعالى يقول : « فاذكرونى أذكركم » (٣) فالمسلم يذكر ربه ، وربه يذكره ، وقد وضح

(١) العودة الى الايمان للدكتور هنرى لنك ، تعريب ثروت عكاشة مطبعة دار المعارف سنة ١٩٥٩ ص ٢٦ •
(٢) سورة الرعد ٢٨ •
(٣) البقرة ١٥٢ •

الحديث الشريف هذا الذكر حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث قدسى عن الله تعالى : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم »(١) وفى حديث قدسى آخر « اذا تقرب العبد الى شبرا تقربت اليه ذراعا ، واذا تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ، واذا أتانى يمشى أتيته هرولة » (٢) والمسلم يقف أمام ربه مقيما الصلاة مناجيا لله ، والله سبحانه يصلى هو وملائكته على عباده « هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما » (٣) والمحبة متبادلة بين الخالق والمخلوقين « ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » (٤) فهو سبحانه « يحبهم ويحبونه » (٥) وهو سبحانه راض عنهم وهم عنه راضون « رضى الله عنهم ورضوا عنه » (٦) ومن الطبيعى أن صفات الله من الذكر والصلاة والمحبة والرضوان هى رحمات منه متواليات ، يغدقها على عباده المؤمنين ، وأن صفات المخلوقين عبادات مرفوعة الى الله الجدير بالحب والعبادة والتقديس .

والنتيجة أن يتسامى الانسان من نطاق المادة الى الملأ

(١) رواه الشيخان .
(٢) رواه البخارى .
(٣) الأحزاب ٤٣ .
(٤) آل عمران ٣١ .
(٥) المائدة ٥٤ .
(٦) التوبة ١٠٠ .

الأعلى ، فيصبح جديرا بخلافة الله فى أرضه ، وحمل أمانته بين خلقه ، واذا امتلأ قلبه بالايمان امتلأ بالسكينة والاطمئنان ، فانه سبحانه « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » (١) .

واذا كان أهم مصادر القلق النفسى هو الحزن على ما فاته أو الخوف مما يباغتنا به المستقبل ، فان المؤمن الصادق الايمان لايأسى على ما فاته من حظوظ الدنيا ، لأنه يعرف أن الأمور تجرى بالمقادير ، كما ورد فى الحديث الشريف : « واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك » رواه الترمذى وأحمد والحاكم .

وفى رواية أخرى زيادة : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » رواه الترمذى وهذا مصداق لقوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » (٢) والمسلم يعلم أنه اذا تعرض لمصاب فقابله بالصبر رفعه الله به درجات ، وكفر به عنه كثيرا من السيئات ، وفى هذا يقول صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها

(١) الفتح ٥ .
(٢) الحديد ٢٢ و ٢٣

الا حط الله تعالى به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها »(١) وقال صلوات الله عليه : « مامن مسلم يشاك شـوكة فما فوقها الا كتبت له بها درجة ، ومحيت عنه خطيئة » (٢) وليست الشدائد مقصورة على بعض الناس دون بعض ، ولم ينج منها الانبياء بل هم أشد الناس تعرضا للبلاء ليكونوا فى صبرهم أحسن قدوة للمقتدين ، وفى هذا يقول صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس بلاء الانبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينـه فان كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وان كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركـه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » (٣) والمؤمن فى ثقته بربه يعلم أن مع العسر يسرا ، وأن لكل ضيق فرجا ، وأن الله مع الصابرين ، وأن العاقبة للمتقين « ومن يتق الله يجعل له مخرجا • ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبـه » (٤) « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » (٥) وأن الله اذا اختبر عبـده بما يؤذيه فطالما أنعم عليه بما يرضيه ، وأن نعمه عليه متوالية من قبل ومن بعد « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (٦) وهو حينما يمتلىء قلبه بهذه المعانى لا يستطيع أن ينفذ اليه الخوف

(١) رواه الشيخان .
(٢) رواه مسلم .
(٣)رواه البخارى وابن ماجه والامام أحمد .
(٤) الطلاق ٢ و ٣
(٥) الطلاق ٤
(٦) ابراهيم ٣٤ .

أو الحزن « ألا ان أوليـاء اللـه لا خـوف عليهـم ولا هـم يحزنون » (١) فيفيض قلبه بالسكينة والأمان والاطمئنان ، فيحيا راضيا عن ربه مرضيا عنه منه « يا أيتها النفس المطمئنة • ارجعى الى ربك راضية مرضية » (٢) •

والقرآن الكريم يقرر فى حزم ، أن المؤمنين يتلقون نصيبا من الثواب فى الـدنيا ، كما يتلقون الثواب الأكبر الـدائم فى الآخرة • « لنبوئنهم فى الدنيا حسـنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » (٣) ، والمـلائكة موالون فى الدنيـا والآخـرة « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنـيا وفى الآخرة » (٤) والبشرى صادرة من الله تعالى لهم فى الدنيا والآخرة معـا « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » (٥) أما الكفار فلهم عذاب عاجل فى الدنيا وآجل فى الآخرة « لنذيقهم عذاب الخزى فى الحيـاة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » (٦) « لهـم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (٧) « لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق» (٨)

فأى هدى سام يتطلع اليه الانسان فى الحياة أكبر وأكرم

(١) يونس ٦٢
(٢) الفجر ٢٧ ، ٢٨
(٣) النحل ٤١
(٤) فصلت ٣١
(٥) يونس ٦٤
(٦) فصلت ١٦
(٧) البقرة ٤
(٨) الرعـد ٣٤

من الأمان والسكينة والاطمئنان فى الدنيا والآخرة ، وأى محذور يتقيه أخطر من الخزى والهوان فيهما .

وفى هذا بلاغ لأتباع المذهب المادى الذين يسخرون من وجود حياة أخرى للانسان ، ويرونها وهما من الأوهام يخدع به الأمراء والقساوسة الغالبية العظمى من الشعوب ليقنعوا بما هم فيه من فقر وشقاء ، وليتركوا نعيم الدنيا للقساوسة والأمراء والأغنياء ، ولذا هتفوا بأن « الدين أفيون الشعوب » واذا كانت المسيحية تجعل الفقر والرهبنة والزهد فى الطيبات مثلا أعلى للمسيحيين ، فان الاسلام يحض المسلمين حضا على الضرب فى مناكب الأرض والسعى فى سبيل الرزق والتمتع بطيبات الحياة دون اسراف أو كبرياء ، « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » (١) وقد خاطب الله أنبياءه بهذا : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » (٢) وأنكر على من حرم الزينة ودعا الى التقشف والحرمان « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٣) ومن على رسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه أغناه بعد املاق « ووجدك عائلا فأغنى » (٤) .

وقد أنبأ الله عباده بأنه سخر لهم كل مافى الأرض ،

---

(١) الجمعة ١٠
(٢) المؤمنون ٥١
(٣) الأعراف ٣٢
(٤) الضحى ٨

وكل ما تضمه الأرض من سهول ووديان وبحار ومناجم « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا » (١) «وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه»(٢) وبهذا امتاز الاسلام على غيره من الديانات ، حيث جمع بين المادة والروح ، وبين الواقعية والمثالية ، وبين الدنيا والآخرة « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » (٣) .

ويذهب بعض الفلاسفة الى أن القانون يغنى عن الدين ، لأن عقابه سريع لا ينتظر بعثا ولا نشورا ، ولأن عامة الدهماء تخشى العقاب الواقعى العاجل ، ولا تلقى بالا الى العقاب النفسى ولا العقاب الآجل ، وما دامت عين القانون ساهرة قوية فان المجتمع يستطيع أن يعيش فى أمن وسلام ، دون حاجة الى دين يحميه ، والحقيقة أن كثيرين يخشون العقاب العاجل ويحبون النتيجة العاجلة وان كان وراءها شر كثير ، والى هذا أشارت الآية الكريمة « بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة» (٤) وفات هؤلاء أن الله سبحانه يعجل جانبا من الثواب فى الدنيا ، كما يعجل جانبا من العقاب فيها كما ذكرنا منذ قليل .

والقانون لايعاقب الا على ما يظهر ، ويؤيده الواقع ، وكثيرون من المجرمين يرتكبون جرائمهم ، ويخدعون رجال الأمن

---

(١) البقرة ٢٩
(٢) ابراهيم ٣٢ — ٣٤
(٣) البقرة ١٤٣
(٤) سورة القيامة ٢١

ورجال القانون ، ويعيشون فى الأرض فسادا ، ثم يفلتون من العقاب ، وكثيرون يسترون جرائمهم بالارهاب أو بالرشاوى ، فلا يشهد عليهم أحد بهذه الجرائم ، لأنهم يخشون شرهم ، أو يرجون بذلهم ، ولكن الله المطلع على الضمائر « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » (١) فلا تخفى عليه خافية ، ولا يفلت من عقابه المجرمون « قل ان تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم مافى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير » (٢) « وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » (٣) « واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم فاحذروه» (٤) والقانون يعاقب ولكنه لايكافىء ، ومن الناس من تخيفه العقوبة ، ومنهم من تجذبه المثوبة ، بل ان الفرد الواحد يتجاذبه الخوف والرجاء •

والله سبحانه يثيب الطائعين ويعاقب المسيئين « ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم » (٥) وهناك جرائم لا يعاقب عليها القانون مثل الكذب والنفاق وأكل الربا وشرب المسكرات والبخل والجشع وكنز الأموال ، ولكن الله يتوعد عليها بالعقاب الشديد لأنها جرائم تلحق أشد الضرر بالأفراد والجماعات •

(١) غافر ١٩
(٢) آل عمران ٢٩
(٣) البقرة ٢٨٤
(٤) البقرة ٢٣٥
(٥) الأنعام ١٦٥

ومواد القانون قد تكون ظالمة وقد تكون قاصرة ، وقد تحمى الطائفية والعصبية المذهبية والعنصرية فى كثير من الدول ، وهى مع هذا غير ثابتة تتغير من جيل الى جيل ومن مكان الى مكان ولكن الشعائر الدينية ثابتة مستقرة بما تقرره من فضائل وما تحظره من رذائل ، وهى قائمة على العدالة المطلقة والموازين القسط «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (١) •

والقانون يمثل سلطان الحاكم ، وربما كان هذا الحاكم ظالما أو بغيضا الى الشعب ، وقد يحيطه الشعب بسخطه ويوجه اليه سهام النقد والسخرية ، ومهما بلغت قوة الحاكم فهو محدود السلطة ، محدود العمر ، محدود المعرفة ، محدود الزمان والمكان أما الدين فيرد الأمور كلها الى حاكم عادل مطلق السلطان لايحده زمان ولا مكان ولا تخفى عليه خافية ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، هذا الا له وسعت رحمته كل شىء « كتب ربكم على نفسه الرحمة » (٢) وهو « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (٣) وهو « الذى خلق فسوى • والذى قدر فهدى » (٤) وهو سبحانه يشمل عباده بانعامه واحسانه ويغمرهم بعطفه وبره وحنانه « وان تعدوا نعمة الله

(١) الزلزلة ٧ ، ٨
(٢) الأنعام ٥٤
(٣) طه ٥٠
(٤) الأعلى ٢ ، ٣

لا تحصوها » (١) وهو تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٢) وهو سبحانه بفضله وكرمه « غافر الذنب وقابل التوب » (٣) لا يعجل بالعقوبة ولا يسارع بالعذاب « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم » (٤) ؟؟

وحاكم الدولة قد يجامل ويحابى ، وقد يتحامل ويتعصب ، ولكن الله سبحانه لا يجامل ولا يحابى ولا يتحامل ولا يتعصب ، بل «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٥) وحاكم الدولة قد يحتجب عن رعيته وراء الأسوار داخل نطاق الحراس الأقوياء ولكن الله قريب من عباده بل هو أقرب اليهم من حبل الوريد « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » (٦) وهو سبحانه يلبى دعوة من دعاه باخلاص وايمان « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » (٧) فلا يحتاج المؤمن فى اتصاله بربه الى شفيع أو وسيط .

ولما كانت الأخلاق والقانون لايستطيع كلاهما ان يحل محل الدين فى توجيه الأفراد وقيادة الشعوب فقد ظن بعض الباحثين أن تقدم العلوم وازدهارها كفيل بجلب السعادة للأفراد

(١) ابراهيم ٣٤
(٢) البقرة ١٨٥
(٣) غافر ٣
(٤) النساء ١٤٧
(٥) الأنبياء ٤٧
(٦) البقرة ١٨٦
(٧) غافر ٦٠

والمجتمعات بما يحله من مشكلات وما يقدمه من وسائل للترفيه والراحة والتمتع بلذات الحياة ، وزعموا أن العالم كان فى بدء نشأته يحتاج الى الدين كما يحتاج الطفل الى المربى ليأخذه برفق وليوجهه بحزم .

أما الآن فقد استطاع العلم أن يقرب الأبعاد ويلغى المسافات ويحمل الانسان فوق الهواء وتحت الماء وعلى غمار الأمواج وأن يقتحم به الفضاء ويصل به الى القمر ويتهيأ للوصول به الى الكواكب الأخرى عن قريب ، وبهذا يصبح سيدا للكون فلا حاجة به الى سيادة سواه من آلهة وأرباب ، وفى هذا يقول : « أوجست كومت » (١) ان العقل مر بحالات ثلاث : حالة لاهوتية (دينية) ثم حالة ميتافيزيقية (تجريدية) ثم حالة واقعية .

ففى الحالة اللاهوتية يبحث العقل عن كنه الكائنات وأصلها ومصيرها فيخلع على الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الانسان ثم قاده ذلك الى تعدد الآلهة ، ثم الى التوحيد .

اما فى الحالة الثانية الميتافيزيقية التجريدية ففيها يرمى العقل الى استكناه ضميم الأشياء وأصلها ومصيرها ويستبدل بالعلل المفارقة عللا ذاتية يتوهمها فى باطن الأشياء مثل : القوى الفاعلية ، الجوهر ، الماهية ، النفس ، الحرية ، الغاية ،

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة للاستاذ يوسف كرم طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٧ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

ويقوده هذا الى الاعتقاد بقوى تتعدد بتعدد الظواهر مثل : القوة الكيميائية ، القوة الحيوية : ثم الى ارجاع القوى العديدة الى قوة أولية هى (الطبيعة) • وتبلغ هذه الحالة أوجها فى مذهب وحدة الوجود الذى يجمع جميع القوى الميتافيزقية فى الطبيعة(١)•

أما الحالة الثالثة وهى أن العقل يكف فيها عن التطلع الى الحصول على معارف مطلقة ويقصر همه على التعرف على الظواهر الواقعية واستكشاف قوانينها وترتيب القوانين فيها من الخاص الى العام ، وهنا تحل الملاحظة محل الخيال والاستدلال فيكون العلم محاولا الاجابة عن السؤال (كيف) لا • الاجابة على السؤال (لم) ؟ وهذه الطريقة هى التى أفلحت فى تكوين العلم وتقدمه ويجب أن يحل العلم الذى تولد عنها محل الفلسفة ثم يذهب « كومت » الى أن هذه الحالات الثلاث تتوالى فى الانسان فهو فى طفولته لاهوتى وفى شبابه ميتافيزيقى وفى نضجه واقعى •

وهو بهذا يحصر دائرة المعارف الانسانية فى نطاق التجارب المادية الواقعية ، ويعوق الانسانية عن التطلع الى القوى السامية المسيطرة على الكائنات ، والموجهة لها ، والتى تتجلى آثارها فى الذرة ، كما تتجلى فى المجرة والتى تجذب البشرية الى المثل السامية والآفاق العليا للاتصال بالحق والخير والجمال ، فليست الحياة مقصورة على واقعها المادى ، فهناك طاقات عرفنا بعضها

(١) تشبه الحالة الثانية الحالة الاولى فى خطوات تدرجها •

وجهلنا معظمها وما علمناه لايجاوز قطرة ماء بالنسبة الى المحيطات ومادامت هذه الطاقات قوى باقية مسيطرة تحركها قوة عظمى وتنسقها تنسيقا دقيقا فان الدين باق وان جادل فى هذا المجادلون •

وفى هذا يقول الدكتور « ماكس نوردو » ان الاحساس الدينى أصيل فى الطبيعة البشرية يجده الانسان غير المتمدن كما يجده أعلى الناس تفكيرا ، وأعظمهم حدسا ، وستبقى الديانات ما بقيت الانسانية وستتطور بتطورها وستتجاوب دائما مع درجة الثقافة العقلية التى تبلغها الجماعة (١) على أن العلم لايتناول الظواهر المحسوسة جميعها ، بل يقف حائرا أمام مشكلاتها جميعا ، والى هذا أشار القرآن الكريم بدقة بالغة الروعة فى قوله تعالى « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٢) •

فهم لا يعلمون جميع الظواهر وانما يعلمون ظاهرا ساقه الله منكرا للدلالة على ضآلته ثم كرر الضمير (هم) فى قوله تعالى : « وهم عن الآخرة هم غافلون » لابراز ضآلتهم على الرغم مما يتبجحون به من ادعاءات وقرر هذا فى آيات عديدة منها قوله تعالى : « وما يتبع أكثرهم الا ظنا ان الظن لايغنى من الحق شيئا » (٣) • وسخر من غرور العلماء الماديين فقال :

(١) الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٩ •
(٢) سورة الروم ٧ •
(٣) سورة يونس ٣٦ •

« بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » (١) وهنا تقرر الآية الكريمة أن العلماء وان بلغوا مرتبة سامية من التجارب العلمية فان معارفهم ستظل محدودة وهم لايحيطون — ولن يحيطوا — بكل شىء علما ، فالأمانة العلمية تقتضيهم ألا يكذبوا بما لم يصل الى علمهم لان النفى يقتضى الاحاطة بكل شىء علما ، وهو ما لايستطيع — ولن يستطيع — أن يدعيه أحد من العلماء ، والآية تقدم الدليل على أن التقدم العلمى يكشف كل يوم جديدا لم يكن معروفا وأن هذه الكشوف ينبغى أن تحمل العلماء على التريث فى اصدار الأحكام المطلقة ، ثم فيها اشعار بان الله سيريهم من آياته الكونية وتأويلها ما يردهم الى الصواب حيث يقول : « ولما يأتهم تأويله » فان أداة الشرط « لما » تشعر بقرب الوقوع ، وهذا مصداق لقوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٢) وقوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » (٣) .

كما أن القرآن الكريم يدعوهم الى الاتعاظ بما حدث لمن كان قبلهم من الجاحدين المنكرين الذين بادروا بالتكذيب ثم كشفت الأحداث جهالتهم وقادتهم الى سوء المصير « كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » (٤) .

(١) يونس ٣٩
(٢) فصلت ٥٣
(٣) النمل ٩٣
(٤) يونس ٣٩

على أن العلم اذا كان قد منح الانسانية رفاهية وتقدما — فانه أنزل بها من المصائب والكوارث ما حول حياتها الى شقاء وجحيم وهلاك ، فان الانسان حينما عرف الذرة واستطاع تفجيرها — دمر بها المدن وأباد بها فى ثوان معدودات مئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، ولايزال التقدم العلمى يهدد الانسانية بالدمار والخراب والقضاء الأخير عليها ما لم ينقذها عاصم من الدين .

والشعوب الراقية علميا الآن يتعرض شبابها لألوان من الضياع والتمزق والدمار لأن قلوبهم — من الدين — خواء ، ولهذا فان أرقى الدول حضارة وازدهارا ترتفع فيها نسبة الانتحار .

وهناك من المذاهب الحديثة ما يدعو الى الفوضى والانحلال وعبادة الأهواء والشهوات ، استجابة لبواعث السخط والتشاؤم والتحلل من كل نظام ، كالوجودية (١) والفوضوية وجماعات الساخطين والهيبيز والخنافس .. وما يمثلها من جموح كالسيريالية والعبث والسخط واللامعقول .. وفى هذا انحدار للبشرية من مرتبة الانسانية الى أحط دركات الحيوان .

وفى هذا يقول القرآن الكريم فى استفهام انكارى تعجبى « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد

(١) بعض الفلاسفة الوجوديين لا يعادى الدين .

الله ؟ » (١) ويقول جل شأنه « أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (٢) فهم لايستجيبون للأدلة المنطقية ، ولا للوحى السماوى ، وهما يقرعان الأسماع والقلوب ، وهم مع هذا قد ألغوا عقولهم فلا يفكرون ، وبهذا انحدروا الى مرتبة العجماوات بل هم أضل سبيلا ، لان العجماوات تستجيب لغرائزها الفطرية التى تقودها الى ما يحفظ عليها الحياة، ولكن هؤلاء يدمرون حياتهم تدميرا، بانغماسهم فى الأهواء والشهوات ، وقطع جميع الروابط البشرية واقتراف جميع الرذائل والآثام ، وفى هذا قضاء — أى قضاء على الحياة « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » (٣) « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين » (٤) .

ولهذا كان الدين ضرورة حتمية كما كان نزعة فطرية واقعية وان جحدها المكابرون ، وحسبنا أن نذكر ما قرره العالم النفسى « هنرى لنك » — بعد آلاف التجارب — من أنه « لا يوجد بديل كامل يحل محل تلك القوة الهائلة التى يخلقها الايمان بالخالق وبناموسه الخلقى الالهى فى قلوب الناس » (٥) . كما

(١) الجاثية ٢٣
(٢) الفرقان ٤٣
(٣) المؤمنون ٧١
(٤) القصص ٥٠
(٥) العودة الى الايمان ص ١٢٠

نضيف اليه ما قرره « روبرت مليكان » العالم الطبيعى الأمريكى فى قوله : « ان أهم أمر فى الحياة هو الايمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق ، ولقد كان زوال هذا الايمان سببا للحرب العامة ، واذا لم نجتهد الآن لاكتسابه ولتقويته فلن يبقى للعلم قيمة بل يصير العلم نكبة على البشرية »(١) ويقرر مالبرانش أنه « ما من شىء اذا تأملناه كما ينبغى الا ردنا الى الله » (٢) وحينما نجح السوفييت فى اطلاق مركبة الفضاء التى حملت جاجارين قال العالم السوفيتى المشرف على أبحاث الفضاء : « اننا كلما أمعنا فى استكشاف مجاهل الكون ثبت لنا أن نظامه الرائع فى دقته يجرى وفقا لقوانين تبلغ فى كثرتها واختلاطها ودقتها حدا يستحيل معه أن تكون قد وجدت بشكل جزافى أو لعبت فيه الصدفة دورها بل لابد من أن يكون قد خلق كل هذا منظم ماهر » (٣) وهو يعلن هذا على الرغم من سيطرة المادية الالحادية فى روسيا سيطرة ترعاها الدولة ويكفلها القانون .

وقد أهاب الدكتور « ولسن » الرئيس الأسبق للولايات المتحدة بالشعب الأمريكى أن يعود الى الدين قبل فوات الأوان

(١) الدين والعلم للمشير احمد عزت باشا ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨ ص ١٧٣
(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٩٥
(٣) جريدتا الأهرام والجمهورية فى ٨ اكتوبر نقلا عن وكالة تاس السوفيتية .

قائلا : « ان حضارتنا ان لم تنقذ بالمعنويات فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتها ، وأنها لا يمكن أن تنجو الا اذا سرى الروح الدينى فى جميع مسامها ، ذلك هو الأمر الذى يجب أن تتنافس فيه معابدنا ومنظماتنا السياسية وأصحاب رءوس أموالنا وكل فرد خائف من الله محب لبلده » (١) .

ونحن نعلم أن فولتيو ملحد شن حربا عنيفة على الدين وبخاصة المسيحية ولكنه حينما يتصور العالم بغير دين يرتاع قائلا « اذا لم يكن الله موجودا فينبغى أن نخترعه (٢) » . وقد أعلن المارشال مونتجمرى القائد العظيم الذى غير مجرى الحرب العالمية الثانية : « ان الجيش اذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى ، ان خطر الانحطاط الخلقى فى أفراد الجيش أعظم من خطر العدو ، ولذلك لا نستطيع أن ننتصر فى معركة الا اذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شىء » (٣) .

***

وقد يقول المنحرفون الماديون — وما أكثرهم — ان الشيوعية مجتمع قائم فى دول كثيرة وبعضها بلغ من القوة حدا رهيبا مع أنه مجتمع لا دينى ، بل انه قام على محاربة الديانات فكيف يتفق هذا مع تقديرنا أن الدين ضرورة حتمية .

(١) الدين للدكتور دراز ص ١٥٣
(٢) مناهج الفلسفة جـ ٢ ص ٢٦٧
(٣) الأهرام ٥ مارس سنة ١٩٥١ .

والجواب عن هذا أن الشيوعية حاربت العقيدة الدينية لتحل محلها عقيدة أخرى ومنحتها قداسة جعلتها أشبه بالعقائد الدينية الوثنية ، فقد أحلت عبادة الفرد محل عبادة الاله ، وحسبنا ما أسبغته الشيوعية حول لينين فقد فرضت عبادته على عشرات الملايين من الشيوعيين وحفظت جثته وأقامت له ضريحا ضخما تحج اليه طوائفهم فى اكبار واجلال .

فهى عقيدة دينية — وان أنكر الشيوعيون الديانات — ولكنها نكسة من التوحيد الى الوثنية ومن الانسانية الى الحيوانية البهيمية ومن الفضائل السلوكية الى النزعات الشهوانية وقد فرضت الشيوعية على أتباعها أن يتجردوا من الوطنية وأن يولوا وجوههم الى موسكو يتلقون منها الطقوس المقدسة فى اكبار واجلال دون معارضة أو جدال .

ومع هذا فقد فشلت الشيوعية فشلا ذريعا فى القضاء على العقيدة الدينية داخل حدودها على الرغم من المعتقلات الرهيبة ووسائل التعذيب والتنكيل (١) .

(١) عالجنا موضوع الشيوعية فى كتاب مستقل نعده الان للنشر باسم : « الاسلام والشيوعية نقيضان » .

الفصـــل الثالث

الايمــــان بالله الاله الواحـــــد

« والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم »

أباطيل الماديين — بين المادية والروحية — — الايمان بالأوهام —نظرية التطور — — الدقــة والاختيــار — الخير والشر— البراهين المنطقيــة —

انتهينا من الفصلين السابقين الى أن الدين نزعــة فطرية فى النفس البشرية ، والى أنه ضرورة حتمية لاغنى عنها للأفراد والمجتمعات ، ولكن بعض الملحدين يذهبون الى أن الغريزة عمياء ولا ينبغى أن تكون دليلنا فى الحياة ، واذا خضعنا لها خضوعا تاما فاننا نلغى عقولنا ، ونرتد الى بهيمية الحيوان ، وفاتهم أن الانسان كلما ارتقى فى سلم الحضـــارة اســتطاع أن يهـذب غرائزه (١) ويتسامى بها الى درجة مثالية تليق بكرامته الانسانية فيتحكــم فيها ولا تتحكم فيــه ، فليس مجالهـــا القيادة وانما الانقياد (٢) كما فاتهم أن الدين هو أسمى الوسائل للسمو بهذه

(١) يضيق بعض علماء النفس باســـم الغرائز ، ويقترحون بديلا له اسم النوازع .

(٢) بعض الناس يطلقون لغرائزهم العنان ، وبعض الديانات تحاول كبحها كالبراهمة والمسيحيين ، وكلاهما بعيد عن الصواب .

الغرائز وتنظيمها ، وتسخيرها فى خدمـــة الأفراد والجماعات ، وللاسلام فى التسامى بها أساليب عديدة ، بلغت أرقى ما تتطلع اليه العقول .

وهناك طائفة من الملحـــدين تقول : ان ضرورة الشىء لا تستدعى وجود حقيقته الواقعية أو فائدته الحتمية ، فالقوانين المنظمة للمجتمعات ضرورة حتمية ، ولكنها ليست الها معبودا ، فان فيها أخطاء عديدة ، وهى خاضعة لشهوات الحكام ، وهى من صنعنا ولسنا من صنعها ، وهى مع هذا دائمة التغيير والتبديل وحكم الفرد الطاغية ظل ضرورة حتمية للشعوب جميعها فى بدء تاريخها ، وليس معنى هذا أنه أصبح حقيقـــة خالدة لا يمكن تغييرها بحال من الأحوال ، فقد انتقلت السلطات الحاكمة من الفردية الى الجماعية ، ومن المطلقة الى المقيدة ، ومن الاستبداد الى الشورى ، فما هو ضرورة حتمية فى زمن ما قد يثبت ضرره ووجوب التخلص منه ، واستبدال غيره به فى زمن آخر ، ومـــا يتحتم وجوده فى بيئة قد يتحتم الاستغناء عنه فى بيئة أخرى ، وقد تضطر الحاجة الملحة صاحبها الى اختيار أهون الضررين ، وينتهون من هذا الى أن الدين — وان كان غريزة فطرية ، وان كان ضرورة حتمية — ليس قضية مسلما بها ، وليس حقيقـــة منطقية يجب أن يؤمن بها الانسان ، والى هذا أشار رينان بقوله: « الدين وهم لا غنى عنه » (١) .

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٨٥ .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن العقيدة الدينية حقيقة قائمة فى أعماق كل انسان ، وان كان بعضهم ينفر من تسميتها باسم الدين

فالماديون الطبيعيون تسيطر عليهم عقيدة الواقعية الاقتصادية ، ويؤمنون بها ايمانا تاما ، وعندهم أن المادة هى أساس كل الموجودات ، وأن مظاهر الوجود على اختلافها نتيجة تطور متصل للقوة المادية — وبخاصة العوامل الاقتصادية فيما يتعلق بالانسان — وأما الطبيعة فهى تتجلى فى الميكانيكا ، أى فى جملة القوانين الآلية التى تعبر عن الجسمية المطلقة ، أو الوجهة الكمية فى الأجسام ، ثم فى جملة القوى الطبيعية والكيمائية ، ثم ما ينتج عنهما من القوى الحيوية ، ومن هذا ينتهون الى أن المادة هى مستودع جميع القوى الطبيعية ، وجميع القوى التى تسمى روحية ، ويشتط الفيلسوف أرنست هيكل أستاذ علم الحيوان بجامعة فينا فيزعم : أن الموجود الضرورى الوحيد هو المادة ، وأن الحياة ترجع الى أصل واحد بسيط سماه المونيرا التى تركبت اتفاقا (أى صدفة) من الأزوت والهيدروجين ، والأوكسجين والكربون ، ثم تطورت على التوالى حتى تكونت منها جميع الكائنات الحية ، ولكن من الذى خلق هذه المواد الأربع ؟ ومن الذى حدد مقدار كل منها بالنسبة الى الآخر ؟ ومن الذى سن قانون التطور ؟ وكيف نتج من هذه المراحل كلها عقل مفكر مدرك ؟ على أن كلمة « اتفاقا » أو

« صدفة » تدل على افلاس أصحاب هذه النظرية ، وسنتحدث عن هذا بعد قليل .

وكيفما كان الحال فان لهؤلاء الفلاسفة عقيدة يؤمنون بها ، وبدلا من تسميتها بالعقيدة الدينية يسمونها العقيدة المادية .

والنتيجة أنه لا يوجد انسان ما يخلو من عقيدة تسيطر عليه وتوجهه ، وتشق له طريقه فى الحياة ، فمن الناس من يؤمن بالطبيعة ، ومنهم من يؤمن بالروحانيات ، ومنهم من يؤمن بأن الغاية المثلى من الحياة هى الانغماس فى اللذات ، ومنهم من يؤمن بأن الغاية المثلى هى القوة والسلطان ، ومنهم من يراها فى كنز الأموال بحسب اختلاف طبائع الناس وميولهم ، وتأثرهم بالغرائز أو العواطف أو الأفكار ، ولكل منهم الهه الخاص به الذى يعكف على تقديسه ، ويؤمن به كل الايمان .

واذا كان من الفلاسفة من لا يؤمن الا بالمادة البحتة ، فان منهم من ينكر وجود المادة انكارا تاما ، ولا يؤمن الا بالعقل أو الروح ، فلا وجود للمادة فى الخارج عنده ، وانما هى من عمل العقل الباطن ، وفى مقدمة هؤلاء الفيلسوف جورج بركلى وهو يقرر فى كتابه « أصول المعرفة البشرية » أن وجود العالم الخارجى متوقف على وجود العقل الذى يدركه ، فلو لم يكن هناك عقل مدرك ما كان هناك عالم مادى ، وهو لا يشك فى وجود العالم الخارجى ، ولكنه يراه من خلق العقل والحواس ، ومن أقواله المأثورة : « ان وجود الموجود هو أن يدرك أو يدرك »

وما دام هناك عقل وهناك حواس فهناك أيضا عالم خارجي أيضا، ولكنه معقول ، وينتهي الى أن كل ما في الوجود عقول وما تحويه من أفكار ، ولا وجود للمادة ... ولما كانت أفكارنا متنوعة متعددة ، وكانت هذه الأفكار ليست من ابتداعنا ، فلا بد أن يكون لها سبب خارج عنا ، ولا بد أن يكون هذا السبب مفكرا مريدا ، ولما كانت أفكارنا غير متناهية ، فلا بد أن يكون ذلك الكائن قوة غير نهائية ، وعقلا غير محدود ... هذا الكائن هو الله (١) .

ومن الفلاسفة من يمزج بين المادة والروح ، وينتهي به البحث الى وحدة الوجود ، ومن أشهر هؤلاء الفلاسفة : باروخ سبينوزا وهو يذهب الى أن في الكون حقيقة شاملة يسميها ، الجوهر أو الأساس ، وهي الحقيقة الكامنة وراء الأشياء ، وهي فعالة منشئة من جهة وهي منفعلة ومخلوقة من جهة أخرى ، فالجانب المنفعل منها هو الكون ، والجانب الفعال منها هو الله ، وفي هذا يقول : « ان الله هو السبب الكامن للأشياء كلها ، ان كل شيء كامن فيه ، وكل شيء يحيا ويتحرك فيه » ويستطرد فيقرر أن قوانين الطبيعة وأوامر الله الخالدة شيء واحد بعينه ، وأن كل الأشياء تنشأ من طبيعة الله اللانهائية ، ثم يقول : « انني في حقيقة الأمر لم أهبط بمنزلة الاله الى مستوى الطبيعة ، بل رفعت الطبيعة الى مستوى الله ، فالحقيقة عنده عالم واحد هو

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ١٦١ — ١٦٤ وقصة الفلسفة الحديثة جـ ١ ص ٢٢١ — ٢٣١ .

الطبيعة ، والله في آن واحد ، ينطبق أحدهما على الآخر ، وهو يرى أن كل شيء حي بدرجة ما » (١)

ومن هنا يتضح أنه لا يخلو انسان عاقل من عقيدة يؤمن بها ، سواء كانت مادية أم روحية ، أم مزيجا منهما ، أم خليطا من الأوهام والخرافات ،فمن الناس من الهه المادة البحتة ومنهم من الهه شهواته ، ومنهم من الهه المال أو المنصب أو الجاه والسلطان ، ومن العجيب أن القرآن الكريم والحديث الشريف أشارا الى هذا الخبط العجيب ، فالقرآن الكريم يشير الى من يعبد أهواءه وشهواته فيقول : « أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا» (٢) ويشير الى تقديس الجاه والسلطان فيقول : « وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » (٣) ويشير الى من يعبدون المال فيقول : « وتأكلون التراث أكلا لما • وتحبون المال حبا جما» (٤) وفيهم يقول الحديث الشريف : « تعس عبد الدينار والدرهم ... » (٥) ومنهم من يؤمنون بفعل الطبيعة ، ويسميهم العرب الدهريين نسبة الى الدهر ، وعقيدتهم : « ان هي الا أرحام تدفع ، وقبور تبلع ،

(١) راجع في سبينوزا تاريخ الفلسفة الحديثة ١٠٣ — ١١٩ وقصة الفلسفة الحديثة ص ١٢٨ — ١٧٧ ومادة سبينوزا في دائرة المعارف البريطانية ورسالة في اللاهوت والسياسة تعريب دكتور حسن حنفي طبع الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٧١

(٢) الفرقان ٤٣ .

(٣) الأحزاب ٦٧ .

(٤) الفجر ١٩ ، ٢٠ .

(٥) رواه البخاري .

وما يهلكنا الا الدهر » وفيهم يقول القرآن الكريم : « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ومالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » (١) ٠

والواقع أن وراء كل عقيدة الايمان بقوة عظمى ، بعضهم يسميها المادة ، وبعضهم يسميها الطبيعة ، ومنهم من يسميها الكهرباء أو الأثير ٠ وفيهم يقول الله تعالى : « ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢) ويقول جل شأنه « ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (٣) ٠

واذا تعمقت فى أغوار هؤلاء رأيتهم يرمزون بهذه القوى الى الله تعالى ، أويتخذونها وسيلة اليه وقالوا « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٤) ، « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » (٥) فالقوة العليا المسيطرة على الكون

(١) الجاثية ٢٤ ٠
(٢) يوسف ٤٠ ٠
(٣) النجم ٢٣ ٠
(٤) الزمر ٣ ٠
(٥) يونس ١٨ ٠

متجلية فى كل عقل ، ماثلة فى كل نفس لا سبيل الى انكارها ، وان كان بعضهم يرمز اليها بقرص الشمس ، كما نادى بهذا أخناتون وبعضهم يرمز اليها بالأصنام ، وبعضهم يرمز اليها بالملوك والزعماء ٠٠٠٠ وكلها رموز للاله الأعظم ، وكان الأولى بالجميع أن يتجهوا اليه سبحانه دون وسيط أو شفيع ، قال تعالى :« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » (١) ومن هنا كانت العقيدة ضرورة حتمية ، سواء اعترف بها أم أنكرها الباحثون ٠

ومن الغريب أن يقوم بعض علماء التطور المحدثين ، فيفرضون أن المادة تطورت ، فانبثق من قمة تطورها الاله ، ويسمون هذا مذهب الحيوية المنبثقة وخلاصة مذهبهم أن المادة تتجه الى التركيب والتعقيد، وأن الحياةتظهر فيها عند التركيبكما تظهر الخصائص الكيمائية من بعض العناصر عند امتزاجها ، وعلى هذا المنوال نشأ العقل الالهى نفسه من المادة الموجودة من قديم الأزل (٢) ، فكأن المادة هى التى خلقت الروح ، وكأن الكون هو الذى خلق الله ، وهذا أبعد ما يتخبط فيه العقل ، أو هو نكسة للطبيعة البشرية ، فكيف تخلق المادة العمياء الاله الحكيم ؟ ولا يخلق الاله الكريم المادة العمياء ؟ وثم كيف يخلق النقص كمالا ؟ والضعف قوة ؟ والمقيد مطلقا ؟ والمحدود غير المحدود ؟ أليس هذا أشبه بمن يقول : ان الجواد يمتطى الانسان ؟ وان الثور

(١) الأعراف ١٨٠ ٠
(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ٣٨٥ ٠

يذبحه والفاكهة تأكله ؟ وان الجنين يلد أباه ؟ وان الوضيع يعلم أمه المشي ويرضعها من ثديه ؟ فأي خيال يفوق هذا الخيال ؟ .

وأدعى من هذا الى العجب قول من يقولون : بالصدفة المحضة والقول بالصدفة اهدار للأسباب والمسببات ، والقول بها أشبه بمن يدعى : أن الفوضى تنتج نظاما ، وأن العبث يخلق غاية مرجوة ، وأن الضلال يبعث الهدى ، وأن الظلام يشع الضياء وقد ملأ الغرور الأعمى بعض الماديين ، فقال أرنست هيكل : « ان الوجود الضرورى الوحيد هو المادة ، وان الحياة ترجع الى أصل واحد يكون اتفاقا وصدفة .

ومن الخير أن نتحدث عن مذهب النشوء والارتقاء الذى فتن كثيرين ، وهز اسس الايمان فى نفوسهم ، كما نتحدث عن الصدفة التى لهج بها كثير من أشباه العلماء ، وردد قولهم بعض المفتونين من الشباب ، ثم نعقب على هذا بكلمة عمن يتخذون من وقوع الشر فى الحياة ذريعة لانكار الألوهية ، لأن الشر فى زعمهم دليل على النقص والألوهية دليل على الكمال ، وهما نقيضان ، فوقوع الشر دليل على نقص الكمال ، أو على عدم وجود الاله .

أولا : مذهب التطور :

ان هذا المذهب لا ينفى وجود الخالق ، فان والاس شريك داروين فى تأسيس هذا المذهب ونشره يؤمن بالله ، ويؤمن بالمعجزات ، ويقرر أن ظواهر الانتخاب الطبيعى لا تطبق على خلق الانسان ، وبعض أتباع هذا المذهب من العلماء يعتبرون

بواعث هذا الانتخاب دليلا قاطعا على ابداع الله الخلاق العظيم بل ان داروين نفسه قال أكثر من مرة : ان وجود القدرة الالهية أقرب الحلول الى العقل عند النظر الى قضية الوجود كله ، وان كان لا يملك البرهان القاطع الذي يلزم غيره باعتقاده ، ثم يذكر المتاعب والآلام وضروب التعاسة والشقاء التى تحيط بالاحياء كافة فى هذا الوجود مما يدعو بعض الباحثين الى الشك والالحاد ثم يعود فيذكر أن بقاء أنواع الأحياء ورغبة هذه الأنواع فى التوالد والتكاثر دليل قوي على أن عوامل الشر فى الحياة لا تزيد على عوامل الخير فيها ، وأن أسباب الاقبال على الوجود لا تقل عن أسباب الاعراض عنه والنقمة عليه ، (١) وعند حديثنا عن الشر سنثبت أن له حكمة سامية تجعله متمما للخير وأنه ضرورى لوجود الخير فى الحياة .

على أن كثيرين من العلماء يرون فجوات عديدة فى نظرية التطور ، تكاد تجعلها تنهار من الأساس ، وان كانوا يؤمنون بقاعدة بقاء الأنسب التى أثبتتها نظرية النشوء والارتقاء وقررها القرآن من قبلهم بأكثر من ألف وثلاثمائة عام ، حيث يقول تعالى «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » (٢) ويقول سبحانه : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » (٣) .

(١) يوميات العقاد ج ١ ص ٢٤٧ .
(٢) سورة الرعد ١٨ .
(٣) سورة الأنبياء ١٨ .

ومن أشهر العلماء الأعلام المعارضين لنظرية التطور كوفييه وأجاسير وفرخو وغيرهم ، وأعظم معارض لها فى العصر الحديث البروفيسور فيالتون أستاذ علم الأجنة بجامعة مونبلييه ، وعميد كليتها الطبية ، وأعظم علماء التشريع المعاصرين ، وقد أصدر كتابا ناقض فيه نظرية التطور اسمه « أصل الكائنات الحية أو التوهم التحولى » سنة ١٩٣٨ ثم طبعه ١٥ مرة فى مدى سنتين قبل وفاته ، وقد قضى فى بحوثه ٤٠ عاما وخرج منها بأن لعوامل البيئة والوراثة دخلا هاما فى احداث بعض التغييرات فى بعض الكائنات الحية ، ولكنها لايمكن أن تحول نوعا منها الى نوع آخر والعلامة الايطالى روزا يقرر : « أن الاختيار الاصطناعى فى مدى الستين سنة الماضية دليل عظيم ضد نظرية دارون » (١) ويعترف العلامة والاس شريك دارون وزميله فى ابتكار نظرية التحول على قاعدة الاختيار الطبيعى ، أن تحول القرد الى انسان لا يمكن حدوثه بدون تدخل الهى ، ويقول العلامة كاتر فاج عالم التاريخ الطبيعى المشهور : « من الغريب أن الجيولوجيا لم تحفظ لنا فى كتابها العظيم الا الحقائق التى تنقض نظرية التحول ، ولم تفقد من كتابها الا الصحائف التى تؤيدها » ويقول الأستاذ رينكه : « ان القول الذى يمكن أن يقوله العلم متفقا

(١) أعلن دارون نظرية التطور فى كتابه أصل الأنواع سنة ١٨٥٩ ثم ايدها بكتابه « تغير الحيوان والنبات » سنة ١٨٦٨ ثم طبقها على الانسان فى كتابه تسلسل الانسان والانتخاب الطبيعى سنة ١٨٧١ ثم عالج مشكلاتها فى كتاب « التعبير عن الانفعالات » سنة ١٨٧٢ .

مع كرامته هو : أنه لا يعلم شيئا من أصل الانسان » ويقرر الأستاذ العلامة ديبرى ، أكبر علماء الحفريات فى العصر الحديث : « أننا يجب أن نعترف بعجزنا عن مشاهدة أو ايضاح كيفية تنوع الفصائل والفروع الأساسية للملكة الحيوانية ، وهذه الأنواع لا يمكن ايصال أحدها بالآخر الا بآراء خيالية وحلقات نظرية » .

ويذكر الدكتور هنرى أوسبورى رئيس متحف التاريخ الطبيعى بنيويورك فى كتابه : « أصل الحياة وتطورها » : من وقت ظهور كتاب أصل الأنواع لدارون حتى الآن وصلنا فى نهاية الأمر الى حالة من الرفض التام لكل أسباب التطور لعدم وجاهتها علميا ... فمن الأفضل لنا أن نعترف صراحة بأن الأسباب الرئيسية للتطور ما زالت مجهولة لدينا تماما ، وأن أبحاثنا تبدأ من جديد ، على أن دارون نفسه ذكر فى كتابه « الحياة والمخاطبات » ص ٢٥ من المجلد الثالث أنه يوجد على الأرض ما يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين من الأجناس ، وعلى الرغم مما بذله ذوو الخبرة من جهود جبارة فى الملاحظة ، لم يستطيعوا أن يسجلوا حالة تغير واحدة من نوع الى آخر ، وان كان يتوقع أن مواصلة الأبحاث ستمدهم بالدليل المطلوب ، وبعد ملاحظات أكثر من نصف قرن بعد دارون سجل البروفيسور باتسون — وهو من المؤمنين بنظرية التطور — أن المساعى المتواصلة المبذولة فى صبر وأناة لم تسفر عن دليل مادى واحد يؤيد تطور الأنواع الى أنواع أخرى ، وكل سبيل سلكوه انتهى بهم الى

طريق مغلق ، ونلاحظ أن دارون لم يذكر تسلسل الأنواع من أصل واحد بل ردها الى أصول مختلفة قليلة العدد سماها الفروع الأولية ولم يستطع تعليل منشأ تلك الفروع الأولية ، ونختم هذه الملاحظات بما قاله العلامة برايس : « ان هذه النظرية الآن غير ذات موضوع ، وغير مناسبة بسبب الحقائق التى نعرفها الآن » وبما قاله العلامة داوسن استاذ علم طبقات الأرض : « ان هذه النظرية أغرب الظواهر الانسانية ، وهى خالية من البرهان تماما » (١) .

والخلاصة أن هذه النظرية لا تزال محل جدل طويل بين كبار العلماء والباحثين ، وأضعف ما فيها افتراض الحلقات المفقودة وتعليل الطفرة ، وعلى فرض صحتها فاننا نتساءل ، من الذى أوجد الأنواع الأولى ؟ ومن الذى بث فيها الحياة ؟ ومن الذى سن قانون التطور ؟ ومن الذى خلق الظروف والملابسات المناسبة لهذا التطور ؟ أليس هو الله « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (٢) ؟ و « الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » (٣) وسبحان من قال للملائكة « انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له

(١) راجع كتاب تصدع مذهب دارون للدكتور حليم عطية سوريال طبع المطبعة الوطنية سنة ١٩٣٧ وكتاب بطلان نظرية التطور للأستاذ برنسو ميخائيل نشر مكتبة كنيسة الاخوة ولم يرد ذكر للمتابعة ولا للتاريخ فى الكتاب .
(٢) سورة طه ٥٠
(٣) سورة الأعلى ٢ ، ٣ .

ساجدين » (١) وهو تعالى يقرر كيف خلق الانسان فى أطوار متعاقبة : « وقد خلقكم أطوارا » (٢) « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » (٣) .

ولا شك أن الانسان يتطور من نطفة الى علقة الى جنين الى طفل .. ولا شك أن تكوينه يرجع فى أصله الى التراب ، وقد ثبت علميا أن الانسان يتغذى من الخلايا النباتية والحيوانية المستمدة من التراب ، وأنه يلبس التراب ويأكل التراب وينتهى الى التراب ، وأن خلايا جسمه مكونة من العناصر الترابية الكربون والفوسفور والاوكسجين والادروجين والمغنسيوم والكبريت والحديد ... « فتبارك الله أحسن الخالقين » (٤) وهو سبحانه منحه العقل والهمة والرشد ، وبعث اليه الرسل ، وأنزل اليه الكتب ، وسواه فعدله وكرمه وفضله على كثير من خلقه ، وجعله خليفته فى أرضه ، وحامل أمانته بين عباده .

ثانيا : الصدفة :

يلهج بعض الماديين بأن الحياة تكونت من المادة بطريق الصدفة ، فاذا سألتهم من أنشأ المادة قالوا انها قديمة أزلية ، فاذا سألتهم ولماذا لا تكون الحياة قديمة أزلية ؟ ولماذا لا تكون الحياة هى أصل المادة ؟ لاذوا بالصمت وعجزوا عن الجواب .

(١) سورة الحجر ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) سورة نوح ١٤ .
(٣) سورة المؤمنون ١٢ .
(٤) سورة المؤمنون ٤ .

ولقد تناول العلامة كريسى موريسون موضوع الصدفة ، فضرب له مثلا عشر ورقات مسلسلة من رقم ١ الى رقم ١٠ ، اذا وضعناها فى كيس وخلطناها خلطا جيدا فان فرصة سحب رقم ١ تكون بنسبة واحد الى عشر مرات ، وفرصة سحب رقم واحد ورقم اثنين متتابعين تكون بنسبة واحد الى مائة مرة ، وفرصة سحب الأرقام واحد واثنين وثلاثة متوالية تكون بنسبة واحد الى ألف ، وسحب الأرقام الأربعة الاولى متوالية تكون بنسبة واحد الى عشرة آلاف .. وهكذا تكون نسبة تتابع الأرقام العشرة متوالية بنسبة واحد الى عشرة بلايين مرة ، هذا فى عشرة أرقام فقط (١) ، فما بالك بجسم انسان عادى يتكون من نحو ستين مليون مليون خلية ، وكل خلية منه تم وضعها وعملها واتساقها مع ترتيب الخلايا الأخرى فى نظام محكم دقيق ؟ هل تم تركيب ملايين الملايين من الخلايا الحية فى انسان واحد بطريقة عشوائية نتيجة الصدفة ؟ وكيف تم تخصيص هذه الخلايا ؟ فهذه كرات بيضاء مهمتها الدفاع عن الجسم من غزو الجراثيم ، وفى كل مليمتر مكعب من الدم نحو ثمانية آلاف خلية بيضاء ، يمثل كل منها جنديا متأهبا للدفاع ، وهذه كرات حمراء يضم كل مليمتر مكعب منها نحو خمسة ملايين خلية ، مهمتها حمل الأوكسيجين والغذاء ، وتوزيعها على بقية الخلايا ، هذا الى جانب ملايين الخلايا المختصة بالهضم ، ثم المختصة

(١) العلم يدعو الى الايمان تعريب محمود صالح الفلكى مطبعة مصر سنة ١٩٥٤ ص ٤٩ .

بالجهاز الدورى ، ثم الجهاز التناسلى ، ثم الجهاز التنفسى ، ثم خلايا حاسة البصر ، وحاسة السمع ، وبقية الحواس ، ثم خلايا المخ والنخاع والأعصاب .

وهل تم تركيب ملايين الخلايا فى كل منها ، وتنسيقها للتعاون مع الخلايا الأخرى بطريق الصدفة المحضة ؟ هذا فى انسان واحد فما بالك بآلاف الملايين من البشر ، ثم كيف يقوم حيوان منوى واحد يتم انتخابه من مئات الملايين ليخترق بويضة الأنثى ، ثم يتهيأ له المكان المناسب فى قرار مكين ، ثم تتكاثر خلاياه بنسبة عددية مزدوجة ، فى سرعة هائلة ، ثم تبدأ بعض هذه الخلايا تتخصص فى تكوين العظام ، وبعضها فى تكوين الغضاريف ، وبعضها فى تكوين اللحم ، وبعضها فى تكوين الجلد .. أو الشعر .. أو الأظافر أو حاسة البصر أو السمع .. أو المخ أو الأعصاب فى تناسق تام ، فهل تم كل هذا عن طريق الصدفة البحتة ؟ وهل تكون هذا كله سدى « أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » (١) ثم لننظر الى الكوكب الأرضى الذى نعيش فوقه ، ان قشرة رقيقة تغشى سطحه جعلته صالحا للحياة ، ان قطر الأرض حوالى ١٣٠٠٠ ميل ، والأرض قطعة من الشمس ، وحرارتها الباطنية تذيب الصخور والمعادن ، وتقذفها فى هيئة براكين ، ولا يصلح للحياة على الأرض الا قشرة رقيقة من بضعة

(١) سورة القيامة ٣٦ — ٤٠ .

أميال تكسو سطحها الشديد الحرارة ، وفى هذه القشرة الرقيقة التى تكون نسبتها الى بقية الأرض كنسبة ورقة تغشى سطح عمارة كبيرة الى هذه العمارة ، فمن الذى مهدها وهيأها ، وأنشأ فيها المحيطات والقارات والجبال والأنهار ، والوديان وأنبت فيها الزرع وبث فيها الحيوان ؟ أتم هذا كله عبثا ولعبا ؟ « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » (١) ان وراء هذا كله قوة عظمى تخلق وتقدر وتدبر وترسم لهدف مقدور « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » (٢) ثم من أقام هذا التوازن الدقيق بين مملكة الانسان والحيوان من جهة ، ومملكة النبات من جهة أخرى ، بحيث يتناول الحيوان والانسان الأوكسيجين من الهواء ، وينفث ثانى أوكسيد الكربون ، ويفعل النبات العكس فيتم التبادل فى تنظيم دقيق ، ان نسبة الأوكسيجين فى الهواء ٢١٪ ولو زادت النسبة لتعرض كل ما على ظهر الأرض للاحتراق ولو قلت نسبته لتوقفت الحياة . . . فتبارك « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (٣) فكل ما فى الكون من كواكب ونجوم ومجرات ومذنبات ... وكل ما فيه من كائنات حية مخلوق بدقة ونظام يتسق مع نظام الكون

(١) سورة ص ٢٧ .
(٢) سورة الحجر ١٩ — ٢١ .
(٣) سورة طه ٥٠

أبدع اتساق « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم » (١) « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » (٢) ان سنن الله الكونية تجرى على نسق دقيق طبقا لميزان محكم مرسوم ، وتبارك « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان » (٣) وسبحان القائل « الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان » (٤) .

ثالثا : بين الخير والشر :

اختلف الفلاسفة اختلافا كبيرا فى تحديد معنى الخير ومعنى الشر ، فمنهم من ذهب الى أن الخير قوامه اللذة ، والشر قوامه الألم ، ومنهم من حدد الخير بالمنفعة ، والشر بالضرر ، ومنهم من يقول مع السير رتشارد بورتن : ليس فى الوجود خير ولا شر ، فما هما الا من صنع أهواء البشر ، فما يسعدنى أسميه خيرا ، وما يشقينى ويؤذينى أعده شرا ، وهذان يتغيران فى العصر الواحد بتغيير المكان واختلاف الأجناس ، وان كل رذيلة قد لبست يوما تاج الفضيلة ، وكل فضيلة قد حرمت يوما على أنها خطيئة أو جريمة ، (٥) ولا نحب أن نخوض فى جدل طويل حول التحديد الدقيق لمعنى الشر والخير ، وحسبنا أن نقول : ان هناك شبه

(١) سورة المؤمنون ١١٥ ، ١١٦ .
(٢) سورة آل عمران ١٩١ .
(٣) سورة الشورى ١٧ .
(٤) سورة الرحمن ٥ — ٧ .
(٥) المصرى ص ٢٥ ، ٢٦ .

اجماع على أن النفوس البشرية تنفر من أمور عديدة مثل : الفقر والمرض والموت ، والحرمان من اللذات الحسية أو المعنوية ...

ويرون أن العالم يكون خيرا اذا خلا من هذه الشرور ويشتط بعضهم فيرى فى وقوع هذه الشرور دلالة على نقص القوة التى أوجدت هذا العالم أو عجزها عن الكمال ، ولهذا فهى مقيدة محدودة لا تصلح أن تتبوأ عرش الألوهية ، ويزداد بعضهم فى الشطط فيعد هذه القوة عمياء لا تتجه الى هدف مقصود ، أو هى قوة منفعلة ناشئة من هذا الكون العجيب لا منشئة له .

وقبل أن نجادل هؤلاء وأمثالهم ، نحب أن نتخيل أن عالمنا هذا خلا من كل ما يعدونه شرا فهل يصلح مع هذا للبقاء ؟

لنفرض أن هذا العالم خلا من الفقر والمرض والجهل ، والموت والحرمان والآلام ، فماذا تكون النتيجة ؟ النتيجة أننا اذا فقدنا الشر فقدنا معه الخير أيضا . فكيف نشعر بالغنى اذا لم نعرف الفقر ؟ وبالصحة اذا لم نمرض ؟ وبالعلم اذا لم نتخبط فى الجهل ؟ وبالحياة اذا لم نتعرض للموت ؟ وبالنعيم اذا لم نذق الحرمان ؟ وباللذة اذا لم نذق الآلام ؟ وهب هذا كله تحقق فما هى الصورة الكاملة للعالم الخالى من الشرور ؟ انه سيكون عالما خاليا من كل مقومات الحياة ، لأن الانسان يسعى ويكدح ليوفر لنفسه سبل الراحة والاطمئنان ، ومادام هـذا العالم خاليا من المتاعب والمخاوف ففيم السعى ؟ وفيم الكفاح ؟ ولا حاجة بالانسان الى الملبس والمسكن والمأكل ، لأنه لا حر ولا برد يدفعه

الى التماس اللباس والمأوى ، ولا جوع يدفعه الى الزراعة أو الصيد أو الصناعة أو التماس الطعام ....

وبالتالى ما الحاجة الى اقامة المدن والمصانع والمزارع ، ووسائل المواصلات ، والضرب فى مناكب الأرض ، كما أنه لا حاجة الى مدارس ومعاهد وجامعات ، ولا الى مؤسسات علمية أو ثقافية ، ولا الى صحف ومكتبات واذاعات .. ولا حاجة الى مكتشفين ولا الى مهندسين ، ولا حاجة الى مصحات ومستشفيات ، ولا الى أطباء وممرضات .. كما لا حاجة الى أى حركة من الحركات ، تصور عالما مثل هذا العالم الخالى من كل شر ألا يكون خاليا أيضا من كل خير ؟ ألا يكون صورة من الجمود والخمود والخواء ؟

ان الصراع بين الخير والشر هو سر القوة والنماء والازدهار ، وتقدم العلوم والحضارة والعمران ، بل هو الذى يجعل لحياتنا طعما ، ويجعل للبشرية هدفا وغاية ، هى السمو والارتقاء ، أو التشوف الى الحق والخير والجمال .

اننا لا نجد لذة للراحة الا بعد التعب ، ولا للهدوء الا بعد القلق ، ولا للمتعة الا بعد الحرمان ، ولا للطمأنينة الا بعد الخوف ، ونحن بحاجة الى النوعين المتقابلين من كل هذه الألوان، كما أننا نحتاج الى الليل والنهار ، والظلمة والضياء ، والظل والحرور ، قال تعالى : « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء

أفلا تسمعون • قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون • ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (١) واذا انعمنا النظر وجدنا الخير كثيرا ما ينبعث عن الشر فمعظم الفنون الجميلة التى أسعدت البشرية منبثقة من الآلام ، وتقدم الحضارات منبثق من قيام الثورات ، وازدهار المكتشفات والمخترعات ناشىء عن قيام الحروب المدمرة ، وكسب الأجسام الحية مناعة وحصانة ناتج عن اصابتها بالجراثيم والأوبئة ، كما أن تشذيب النبات وتقطيع بعض الفروع والأغصان يزيد النبات قوة ونماء ، والى هذا المعنى أشار أبو تمام بقوله :

ان الاشاء اذا أصاب مشذب
منه اتمهل ذرى وأث أسافلا (٢)

ولولا الموت ما كانت الحياة ، ولولا الذبول ما كانت النضرة فالنبات يموت ليحيا الحيوان والانسان ، والحيوان يموت ليحيا الانسان ، والانسان يموت ويتحلل جسده فينمو عليه النبات ، ولو ألغينا الموت لحرمنا نعمة الانجاب والانسال ، أو لحاولنا اختراع الموت لتتسع خيرات الأرض لما تنهض به من بني

(١) سورة القصص ٧١ — ٧٣ .
(٢) الاشاء صغار النخل واحدته اشاءة ، اتمهل واتمأل : طال واعتدل ، الذرى : القمم ، وأث النبات : تكاثر .

الانسان ، على أن خطر الموت هو الذي يميز انسانا على آخر بالصبر والشجاعة والتضحية والايثار ، ولله در المتنبى اذ يقول :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى
وصبر الفتى لولا لقاء شعوب (١)

على أن الموت ليس نهاية المطاف ، وسنعقد فصلا آخر نعالج فيه هذا الموضوع • ومن هذا يتضح أن ما يعده الانسان شرا هو فى الواقع خير ، أو هو مصدر للخير من حيث ندرى ولا ندرى « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (٢) « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (٣) والله سبحانه يبتلى الانسان بالخير والشر ليرهف عزائمه ويشحذ مواهبه ، ويحفزه الى استغلال ملكاته وطاقاته ، فينقيه ويمحصه كما ينقى الصائغ الذهب من الشوائب « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (٤) يقال فتن الصائغ الذهب والفضة لا ذابتهما وتمييز معدنهما ، ولهذا يقال للصائغ : الفتان ، والله سبحانه يفتن عباده ويبلوهم بالشر والخير لتميزهم « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » (٥) والابتلاء بالشر والخير هو الذى يظهر معادن الرجال ، ويصقل مداركهم ويفضل بعضهم على بعض

(١) شعوب : اسم للموت .
(٢) النساء ١٩ .
(٣) البقرة ٢١٦ .
(٤) الأنبياء ٣٥ .
(٥) آل عمران ١٤١ .

درجـات ، وذلك « ليميز اللـه الخبيث من الطيب » (١) والله سبحانه يعلم الخبيث من الطيب أزلا ، ولكنه يهيىء الفرصـة لبروزه فى واقع الحياة ليترتب عليه ما يترتب من آثار « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتـم عليـه حتى يميز الخبيث من الطيب » (٢) وفى هذا كله دفع للانسان الى السمو والارتقاء ، وحفز له الى الاتجاه الى الخير والتمسك بالحق والخير والجمال، والى أن ينشد الكمال لذاته ولمجتمعه فى تجاوب واتساق مع جميع الكائنات . فما نظنه شرا هو فى الواقـع ان أنعمنا النظر خير ، أو طريق الى الخير ، وهو ضرورى لازم لهذه الحياة ، ولولاه لكانت موسومة بالنقص الخطير ، ان لم يكن بالجمود والفناء .

ووجود الشر فى الحياة دليل على تدبير كامل واحكام شامل دبره الاله الحكيم الخبير « عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. الذى أحسن كل شىء خلقه » (٣) والكون فيـه نقص ـ لاشك فى هذا ـ ولكنه نقص المخلوق ازاء الخلاق العظيم ، الذى فطر الكون ونسقه ، ووضع له من السنن الكونية ما يكفل له التطور والرقى نحو الكمال الذى تسمح به طبيعة الحياة الدنيا ، وجعل الشر فيها حافزا الى الخير ودافعا اليه ، كما يدفع الخطأ الى الصواب ، والفشل الى النجاح ، والتعب الى الراحة ، والنضال الى الأمان ، وفى هذا يقول لبنيتز : « لولا ما تحويه الحياة من بؤس وألم ما كانت الدنيا خيرة على خير ما يستطاع خلقه ، لأن

(١) سورة الأنفال ٣٧ .
(٢) آل عمران ١٧٩ .
(٣) السجده ٦ ، ٧ .

البؤس والألم كثيرا ما يكونان سبيلا الى الخير وسببا فى وجوده والمرارة القليلة كثيرا ما تكون ألذ مذاقا من السـكر الحلو .. ان الشر وسـيلة الى الخير ، ووجوده الى جانب الخير يظهر جمال الحياة ، فانها تكون أقل جمـالا وكمـالا لو أنها لم تحو الا خيرا محضا ، ان الخير هو الجانب الايجـابى من الحياة ، والشر هو الجانب السلبى منها (١) ولابد من سالب وموجب فى تكوين الذرة وفى المغناطيسية ، وفى تكامل التيار الكهربائى .

والعامة بفطرتهم الملهمة يحمدون الله على السراء والضراء ، أما السراء فلأنها نعمة ، وأما الضراء فلأنها طريق الى النعمة ، ولعـل هذا ما حفز البابا أنوسنت الثانى الى كتابة رسـالته « فى تعاسة حظ الانسان » وفيهـا يقول : « ان كل معتقد فى ايماننا يفترض أن هذا العالم مخلوق للعذاب ، ألا ترى أن هذا هو السبب الذى يجب من أجله أن نؤمن ؟ كيف يمكن أن نحتمل العيش اذا عرفنا أنهذا العذابلن تعوضه السعادة الأخروية »(٢) وهذه نظرة متشائمة لو أتيح له أن يدرس الاسلام لعدل هذه النظرة وعرف أن فى هذه الدنيـا خيرا وشرا ، وأن مع العسر يسرا وأنه « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » (٣) .

والأمر ـ كما يقول الأستاذ « العقاد » فى كتابه « الله » لايخلو عن فرض ثلاثة فروض :

(١) قصة الفلسفة الحديثة جـ ١ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .
(٢) مباهج الفلسفة جـ ٢ ص ٢٦٧ .
(٣) النحل ٣٠ .

اله قادر على كل شىء ولا يخلق شيئا .

أو اله يخلق الها مثله فى جميع صفات الكمال .

أو اله يخلق كونا محدودا يلم به النقص الذى يلم بكل محدود وهذا هو الفرض الوحيد المعقول ؟ : واذا اقترح مقترح أن يكون النقص على صورة لانحسها فليس اقتراحه هذا بمقبول عند جميع العقول الآدمية فضلا عن العقل الالهى المحيط بما كان وما يكون لأن الاحساس بالنقص أقرب الى التماس الكمال عند الكثيرين من نقص لا نحسه ولا يفرق فى شعورنا بين الحسن الشهى وما هو أحسن وأشهى منه (١) .

على أننا ينبغى الا نقصر نظرتنا على الحياة الدنيا بل يجب أن يمتد نظرنا الى الحياة الآخرة التالية لهذه الحياة القائمة عليها حيث تبلغ الكائنات أسمى ما تصل اليه المخلوقات فى دار الخلود « فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » (٢) وفيها يصل الى ذروة النعيم من هو جدير بهذه الذروة من بنى الانسان .

عرفنا آراء الملحدين والمنحرفين وما ساقوه من أدلة أظهرنا ما فيها من تهافت وانهيار وحسبها ضعفا وتهافتا أنها قائمة على الانكار ، والانكار لايستطيعه الا من أحاط بكل شىء علما أما الكائن المحدود فى حواسه وعقله وعلمه فانه لاينبغى له أن

(١) الله للاستاذ عباس العقاد طبع الهلال ص ٢٥٢ .
(٢) القمر ٥٤ ، ٥٥ .

ينفى وجود شىء فوق مدارك حسه وعقله وعلمه فيكون بهذا ممن قال الله تعالى فيهم « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » (١) وقال فيهم « أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما »(٢) وحسبه أن يقول لا أعلمه أو لم يصل علمى اليه .

وبعد أن تحدثنا عن هذه الآراء يحسن بنا أن نلم بأهم مذاهب الفلاسفة المتألهين فى ضوء ما قرره القرآن الكريم وسنكتفى بالاشارة الى أهم البراهين الفلسفية بايجاز :

١ البرهان الكونى :

وهو من أقدم البراهين وأقواها وخلاصته : « أن الموجودات لابد لها من موجد لأننا نرى كل موجود منها يتوقف على غيره ونرى غيره هذا يتوقف على سواه واذا كانت الموجودات غيرواجبة لذاتها فلابد لها من سبب يوجبها ولايتوقف على وجود سبب سواه أو بعبارة أخرى : أن كل كائن متحرك أى متنقل من حال الى حال — والحركة بمعنى الانتقال من حيز الامكان الى حيز الوجود أو من حيز القوة الى حيز الفعل وكل متحرك لابد له من محرك وهذا المحرك يستمد أيضا قوة الحركة من غيره .. وهكذا الى أن يقف العقل عند محرك واحد — لا تجوز عليه الحركة لأنه قائم بغير حدود من المكان أو الزمان — هو الله (٣) .

وهذا البرهان اهتدى اليه الفلاسفة القدماء ومن أشهرهم

(١) يونس ٣٩ .
(٢) النمل ٨٤ .
(٣) الله للعقاد ص ١٨٨ .

القديس توماس الأكويني : كما اهتدى اليه فلاسفة المسلمين وعلماء الكلام وقد بلور ديكارت هذا البرهان وطوره وأبرزه فى صورة جديرة بالاحترام فى التأمل الثالث من تأملاته حيث يقول : أنا موجود ولدى فكرة واضحة عن الكامل المطلق فاما أن أكون منشىء نفسى أو قد أنشأنى غيرى فلو كنت منشىء نفسى لكان أهون على أن أمنح ذاتى الكمال الذى لدى فكرته .. وبما أنى ناقص بدليل أنى أرتاب وأجهل وأشعر بسيرى نحو الكمال شيئا فشيئا فأنا عاجز عن منح ذاتى هذا الكمال وبالأولى أكون عاجزا عن ايجاد جوهرى فلم يبق الا أن أستمد وجودى من غيرى والذى يمدنى بالوجود ان لم يكن هو الكمال فيكون موقفه كموقفى الى أن نصل الى الكامل الأعلى الذى تتمثل فكرته فى عقلى (١) .

لقد صاغ القرآن الكريم هذا البرهان أدق وأجمل وأوجز صياغة قبل توماس وديكارت بمئات السنين حيث قال جل شأنه « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لايوقنون » (٢) أسئلة موجزة لا تحتمل الا اجابة واحدة فهم مخلوقون موجودون بعد عدم ولكنهم خلقوا من نطفة متسلسلة من مادة جامدة صماء هى التراب ، وهى مادة مهينة جامدة موطوءة بالأقدام لا تنهض بأثارة من حياة فمن

(١) مشكلة الالوهية للدكتور محمد غلاب نشر عيسى الحلبى . سنة ١٩٤٧ ص ٩٠ ، ٩١ .
(٢) الطور ٣٥ ، ٣٦ .

خلق هذه المادة ومن حولها الى نطفة ؟ ومن خلقهم منها ؟ فيأيها الانسان « أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا » (١) .

والانسان هو أسمى الكائنات المعروفة فهل هو الذى خلق نفسه من مادة التراب ؟ أو هو الذى خلق مادة التراب ؟ أو هل هى التى خلقت الانسان ؟ واذا كان الانسان هو خالق نفسه فلماذا لم يخلقها من مادة ثمينة ؟ ولماذا لم يخلق نفسه أقوى وأكمل مما هو الآن ؟ ولماذا لايجدد خلق نفسه فيفوز بالخلود ؟ ولماذا لا يخلق لنفسه كل ما ينقصه وتشتهيه نفسه فى هذه الحياة ؟ انه أعجز من أن يخلق ذبابة بل ان ما يزعمه آلهة يدين لها بالعبادة عاجزة عن خلق الذباب ، « ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » (٢) .

والتراب مادة من صعيد الأرض ، أو بعبارة أدق من صعيد الأرض والسماء ، لانهما من أصل واحد متحد هو فى النجوم طاقة وهو فى الكواكب مادة فتربة الأرض أو القمر فى شكل مادى هى نفسها تربة الشمس والنجوم الملتهبة فى هيئة طاقة وخلق السموات والأرض أعظم من خلق البشر « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون » (٣) فهل خلق البشر السموات والأرض ؟

(١) سورة الكهف ٣٧ .
(٢) الحج ٧٣ .
(٣) غافر ٥٧ .

ان تسلسل الكائنـــات لابد أن ينتهى الى اله سام قدير يخلق الكائنات ولا يخلقــه أحـــد « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » (١) ويتـــكرر البرهان الـــكونى المنطقى فى أدق صياغة وأبرع أسلوب فى الآية الكريمـــة « نحن خلقناكم فلولا تصدقون • أفرأيتم ماتمنون • أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون »(٢) ان الاجابة الحتمية الوحيدة هى أن الانسان وجميع الكائنات من خلق الله عظيم القدرة محيط بكل شىء لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء « يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم • الذى خلقك فسواك فعدلك • فى أى صورة ما شاء ركبك » (٣) ويابنى آدم « ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل • لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير • قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » (٤) •

٢ — برهان الغاية :

وهو يتفق مع البرهان السابق فى أنه يتخذ من المخلوقات دليلا على وجـــود الخالق ، ويزيد على ذلك أن هذه المخلوقات تدل على قصـــد فى تكوينهـــا ، وحكمة فى تسييرها وتدبيرها ، فكل ما يحيط بنـــا من الكائنـــات يتسق فى نظام وانســـجام ،

(١) النحل ١٧ •
(٢) الواقعة ٥٧ — ٥٩ •
(٣) الانفطار ٦ — ٨ •
(٤) الانعام ١٠٢ — ١٠٤ •

لاينحرفان ولايتخلفان ، فالذرة التى تبلغ حدا من الصغر بحيث لو اجتمع بضـــعة ملايين منها لم يجـــاوز حجمها جميعا رأس دبوس • هذه الذرة هى مجموعة شمسية مصغرة تقوم النواة « البروتون » فيها مقام الشمس ، وتقوم الالكترونات فيها مقام الكواكب ، وهى تدور بسرعة فائقـــة حـــول النواة ، كما تدور الكواكب حول الشمس •

ومادة النجوم (الشموس) هى مادة الكواكب وكل منها سابح فى فلكه الى مستقر له يعلمه الله ، « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور • ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير »(١) وحيثما قلبنا النظر وجدنا الحكمة والتناسب والتناسق فى كل ما تقع عليه أبصارنا وان كان دقيقا ضئيلا « وكأين من آية فى الســـموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » (٢) وهذا البرهان قديم يطالع العقول المفكرة فى كل مكان ، وقد اســـتغله الفيلســـوف الاغـــريقى اناكساغوراس فى اثبـــات القوة العاقلة التى تتولى تدبير الكون وتنظيم أفلاكه وتحديد دورات كواكبه ، وبسبب هذا البرهان وصف سقراط أناكساجوراس بانه الصاحى بين السكارى ، وقد استعمل الرواقيون أيضا هذا البرهان وظل الفلاسفة يتابعون النظر فى هذا البرهان ويعيدون صياغته وتقويمه وبسطه ومنهم فينيلون فى القســـم الأول من كتـــابه « وجود الاله » وكذلك الأسقف بمسويه وتلاهم « جان جاك روسو » وبرنارد بن دى

(١) الملك ٣ ، ٤ •
(٢) سورة يوسف ١٠٥ •

سان بيير : وأطلقوا عليه اسم مذهب الألوهية الطبيعية وان كان ديكارت عدل عنه وقال : « نحن سننبذ من فلسفتنا نبذا تاما البحث فى العلة الغائبة لأنه لاينبغى لنا أن تصل فكرتنا فى رفع أنفسنا الى حد اعتبار أن الاله قد أراد أن يجعلنا نسهم فى معرفة أهدافه ومراميه مع أن أصحاب هذا المذهب لم يدعوا الاحاطة بجميع الغايات والأهداف المتعلقة بتدبير الاله الحكيم وانما أدركوا طرفا منها فيه الغناء (١) وقد عدل عنه أيضا باسكال وسبيونزا وكانت الى براهين أخرى تؤيد وجود الاله ولكنه على الرغم من هذا مازال شامخا باذخا تؤيده الادلة الطبيعية والكشوف العلمية المتوالية التى تبرز حكمة الخلاق العظيم وقد ألف العلامة أ • كرسى موريسون كتابا علميا قيما أثبت فيه بالكشوف العلمية الدقيقة جانبا من حكمة الله فى سننه الكونية التى تتجلى فى جميع آثاره سماه :

A Man Does Not Stand Alone ان الانسان لايقف وحيدا

وقد عربه الأستاذ محمود صالح الفلكى باسم : « العلم يدعو الى الايمان » أورد فيه من الأدلة والبراهين العلمية العديدة ما يبرر حكمة الخلاق العظيم التى تتجلى فى جميع الكائنات وقد وصفه الله فى كتابه الكريم بالحكمة نيفا وثمانين مرة ، فهو : حكيم عليم وعليم حكيم وعزيز حكيم وحكيم حميد وعلى حكيم ، وحكيم خبير ، وتواب حكيم ، وواسع حكيم • واذا كنا (بوصفنا مخلوقين) محدودين نجهل حكمة الخالق غير المحدود ، فاننا

(١) الله للعقاد ص ١٩٢ — ١٩٥ ومشكلة الالوهية ٩٤ — ١٠٣

نعرف ولانزال نطالع كثيرا من فنون حكمته التى تدل على عظمته وسعة قدرته التى تبهر البصائر والأبصار « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » (١) •

٣ — برهان المثل الأعلى :

ومن أبرز المقرزين القديس انسلم وتلاه كثيرون بالتنقيح والتهذيب والاضافة حتى استوى مقبولا لدى بعض الباحثين وان كان كثيرون قد ناقضوه • وخلاصة هذا البرهان أن العقل الانسانى كلما تصور شيئا عظيما تصور ما هو أعظم منه الى نهاية النهايات وغاية الغايات وهى الكمال المطلق الذى لا يفوقه كمال (٢) ، والكمال المطلق لابد أن يكون وجودا مطلقا ، ولا يمكن أن يكون وهما ، والا كان نقصا لا كمالا ، فالاله هو الحائز لجميع الكمالات ، والوجود كمال ، فالاله حائز للوجود وبهذا يكون الاله هو الموجود الأوحد الذى يستلزم تعريفه وجوده ويتنافى جحود وجوده مع مجرد تصور حقيقته ، ولا مجال للجدال فى أن فكرة الله موجودة فى العقول ولكن وجوده فى الحقيقة هو مجال الخلاف (٣) ولما كان كماله يتجلى فى حالة وجوده لا فى حالة عدمه وقد ناقض « جو نيلو » هذا البرهان قائلا ان تصور الشىء لا يستدعى وجوده فاذا تصورت جزيرة بالغة غاية الروعة والجمال فهل يكفى هذا فى اثبات وجودها ؟

(١) سورة آل عمران ١٩١ •
(٢) الله للعقاد ص ١٩٦ •
(٣) مشكلة الالوهية ٧٣ •

وقد تناول ديكارت برهان انسلم فطوره على النحو التالى : ن وجود الاله لا يمكن أن ينفصل عن ماهيته أكثر مما تنفصل كرة الجبل عن فكرة الوادى بمعنى أن النفور من تصور اله غير وجود أى تصور كائن كامل كمالا مطلقا ينقصه الوجود — أى نقصه بعض الكمال — لا يقل عن النفور من تصور جبل بدون راد (١) وتلاه ليبنتير فزاد النظرية توضيحا وتثبيتا ، وان كان ثيرون من الفلاسفة عارضوه ولكننا نستطيع أن نقوى هذا لبرهان وندعمه بأن فكرة الاله ليست مجرد صورة عقلية وانما مى فطر طبيعية فى النفس البشرية ، وليست مجرد فرض افترضناه أو وهم توهمناه .

والقرآن الكريم يقرر أن لله المثل الأعلى « وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » (٢) وأنه سبحانه تفرد بالأسماء والصفات الحسنى « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » (٣) ولاثبات هذا يوازن القرآن بين كمال الخالق ونقص المخلوق ، وبضدها تتميز الأشياء ليتضح انفراد الله سبحانه بالكمال — وان كان لاوجه للموازنة ولكن الأمر أمر توضيح — فالله الموصوف بالكمال المطلق سبحانه وتعالى « يجير ولا يجار عليه » (٤) وهو جل

(١) التأمل الخامس من تأملاته : ديكارت للدكتور عثمان .
(٢) سورة الروم ٢٧ .
(٣) الأعراف ١٨٠ .
(٤) سورة المؤمنون ٨٨ .

شأنه « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » (١) وهو تعالى يخلق ويختار وهم لا خلق لهم ولا خيرة « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » (٢) فانه « بديع السموات والأرض » (٣) وهو وحده « الحق المطلق » وأنه البالغ أسمى العلو وأسمى الكبرياء « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير » (٤) .

وبهذا يكون برهان المثل الأعلى أسمى وأقوى وأبلغ مما أنتجته عقول الفلاسفة والمفكرين لأنه اتخذ من نقص المخلوق دليلا على كمال الخلاق العظيم ونقص الكائنات ملموس ولكنه تزينه ألوان من الكمال يظهر فيها ابداع الاله وكلاهما مشاهد ملموس .

ونلاحظ أن القرآن الكريم لايناقش فكرة جحود الاله وانكار وجوده لأنه يعد وجود الاله قضية فطرية وانها غريزة أصيلة فى النفوس ولكنه يناقش فكرة تعدد الالهة أو اتخاذ اله غير الله لأن للشرك مسارب خفية تضل فيها بعض العقول .

وقد ساق القرآن الكريم من البراهين العقلية والأدلة الوجدانية والأمثلة الواقعية مالايدع لأحد مجالا للشك أو الانكار .

(١) سورة الأنعام ١٠٢ .
(٢) سورة القصص ٦٨ .
(٣) سورة البقرة ١١٧ .
(٤) سورة الحج ٦٢ .

الفصـــل الرابع

الايمان باليوم الآخـــر

« وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون »

الايمان بالبعث نزعة فطرية — اليهودية تحوم حوله ولاتثبته — المسيحية تثبته وتقصره على الأرواح — الاسلام يقرره ويؤيده بأدلة عقليـــة وبراهين علميـــة عديدة .

ان الايمان بحيـــاة أخرى بعد الحيـــاة الدنيا تكاد تلازم الايمان بالألوهيـــة ، وكلاهما نزعة فطرية فى الطبيعة البشرية ترتكز على غـــرائز الخلاص والاســـتغاثة والنفور والتملك والسيطرة ، بل تكاد تمتد الى جميع الغرائز المعروفة وقد نمت مع الانسان منذ ظهوره نتيجة للأحلام التى يراها أثناء نومه ، ويلتقى فيها بالآباء والأجداد وغيرهم ممن فارقوا هذه الحياة .

وقد ظهرت فكرة البعث فى عقائد الشعوب منذ نشأتهـــا ، وهى تتجلى عند قدماء المصريين كما ورد فى كتاب « الموتى » فان الأرواح بعد مفارقتها الأجسام تنتقل الى العالم الثانى على زورق خاص من الشرق الى الغرب مثل الشمس ، وتمثل أمام قضاة يحكمون لها أو عليها بحسب أعمالها فى الدنيا ، فاذا كانت

صالحة عادت الى جسمها ونعمت معه بحياة أبدية خالدة فى نعيم مقيم ، ويتم ذلك باعادة قوى الانسان الروحية الى جسمه واحدة فواحدة ، حتى يتم حصوله عليها جميعا ، وبتلك الكيفية يعود الى الحياة مرة أخرى ، وهو حائز لجميع قواه التى تســـاعده على العيش السعيد فى الحياة الأخرى ، وعندها يبدأ حياة جديدة فى الآخرة لا يعرفها ، ويساعده فيها ملاك سام يحرسه يسمى « كار » يظهر فى الوجود مصاحبا لكل انسان من وقت ولادته ، ويرافقه فى كل حياته حتى ينتقل قبله الى عالم الآخرة ليرشده فيها (١) وعمل الانسان فى الدنيـــا يصـــحبه الى قبره وبخاصة عدالته ، وقد سجلت هذا احدى أوراق البردى المحفوظة بمتحف برلين ، حيث ساقت قصة فلاح فقير حـــاد الذكاء ، ظلمه أحد الولاة فاتخذ الوسائل للظهور أمام الحاكم ليقول له فيما قاله : « احذر لأن يوم الآخرة يقترب .. ان العدالة أبدية فهى تنزل مع من يقيمها الى القبر عنـــدما يوضـــع فى تابوته ويثوى على الأديم (٢) — ومن الوصايا التى وجهها فرعون مصر الى ابنه مريكارع : « انك تعلم أن محكمة القضاة الذين يحاسبون المخطىء لايتسامحون فى ذلك اليوم الذى يحاسبون فيـــه الشرير وقت تنفيذ الحكم .. ولا تركنن الى طول الأيام لأن القضاة ينظرون الى مدى حياة الانسان كأنها ساعة واحدة ، فالانسان يعيش

---

(١) فجر الضمير تاليف جيمس هنرى برستد ، تعريب الدكتور سليم حسن ، دار مصر للطباعة سنة ٥٦ ص ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٣ — ٢٠٥ .

بعد الموت وأعماله تكوم كالجبال بجانبه لأن الحياة الأخرى أبدية ولا يهمل أمرها الا الغبى ، أما من يصل اليها دون أن يرتكب اثما فانه سيبقى هناك كاله يسير بخطى واسعة مثل أرباب الخلود » (١) ٠

كما أننا نجد فى الأساطير الاغريقية الحديث عن مملكة الظلام فى الحياة الآخرة ، ونجد العودة الى البرهما — بعد تكرار التوالد والتناسخ — فى الديانة الهندوسية وخلاصة هذه العقيدة : أن جسم الانسان المادى هو الذى يولد من جسد الوالدين وأما الذى يحركه وينشطه ويسيطر عليه فجسد لطيف يتركب من القوى الأساسية والحواس والقوى الأولية المحركة ، والعناصر اللطيفة والعقل ، فاذا حدث ما نسميه الموت مات الجسد المادى وتوقف وبلى ، أما الجسد اللطيف فلا يموت ، بل يخرج ويعمل مدة من الزمن فى آفاق الكون اللطيفة التى تشبه حالة أحلامنا ، فيجرب هناك الجنة والنار التى تكلمت عنهما الكتب الدينية ، ثم يعود مسوقا بالميول والأعمال الماضية كرة أخرى الى هذه الحياة متقمصا جسدا جديدا ، وتبدأ بذلك جولة جديدة لهذه الروح ، وتكون هذه الدورة نتيجة للدورة الماضية ، فتوجد الروح فى انسان أو حيوان أو ثعبان ، ويسعد أو يشقى نتيجة لأعمال حياته السابقة ، وان كان لايذكر شيئا عن حياته السابقة ، ويظل هكذا حتى يتم تطهيره ويمتزج بالله (٢) ، ونرى شبيها

(١) المصدر السابق ٠
(٢) اديان الهند الكبرى للدكتور احمد شلبى مطبعة لجنة التأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ ص ٦٣ ، ٦٤ ٠

لهذا عند الحيثيين حيث ينتهى التناسخ بالنجاة ، فيبقى الانسان روحا خالدا فى نعيم دائم ، وخلود الروح فى النعيم بعد تخلصه من المادة يعادل « النرفانا » فى البوذية و « الانطلاق » فى الهندوسية ٠

ويفسر بوذا لأتباعه حال النرفانا بأنها طور لا أرض فيه ولا ماء ، لا نور فيه ولا هواء ، لا مكان فيه غير متناه ولا عقل غير متناه ، ليس فيه خلاء مطلق ولا ارتفاع للادراك واللادراك معا ليس هو هذا العالم وذلك العالم لا شمس فيه ولا قمر ٠٠ هو طور لا أفول عنه باتيان ولا بذهاب ولا بوقوف ، لا بموت ولا بميلاد ٠٠٠من غير اساس من غير مرور من غير انقطاع ، ذلك نهاية الحزن (١) ، وهذه صورة غير واضحة ولا مفهومة ، وعند القبائل الدينية لا تنتهى حياة الانسان بانتهاء عمره ، بل ان قواه الحيوية تدور فى الطبيعة بأجمعها ، فتسرى فيها كأنها سيال كهربائى يربط بينها ، وقد تتركز تلك القوى فى شخص أو محراب أو مكان ما ، يكون بمثابة محطات تقوية لذلك التيار الكهربائى وقد تتنوع هذه القوى ويكون لكل منها طابع خاص (٢) ، وفكرة القوى الحيوية تنتشر انتشارا كبيرا بين القبائل الأفريقية العديدة وهى تشبه الى حد ما قصة التناسخ فى الديانات الهندية (٣) ٠

(١) المصدر السابق ص ١٥٩ — ١٦٠ ٠
(٢) الديانات فى أفريقيا السوداء ص ١١ من الترجمة العربية
(٣) يقرر برستد فى كتابه انتصار الحضارة تعريب الدكتور احمد فخرى ص ٢٦٠ — ٢٦٢ أن الزراد شتيه اقدم ديانة ظهرت فى آسيا تقول بالحساب بعد البعث وان الانسان سيلقى جزاء ويحاسب على ما قدمت يداه ٠

ومن هذا يتضح أن انتقال الانسان بعد هذه الحياة الى حياة أخرى أكمل من هذه الحياة ــ سواء تم هذا مباشرة أو بعد سلسلة من الأدوار تكاد تكون فكرة عامة وهى فطرة طبيعية فى النفس البشرية الا فى بعض أفراد وطوائف قليلة ، تحاول أن تكبت هذه النزعة ، وتقف عند ما تدركه حواسها من انتهاء حياة الانسان وموته ، وتحلل جسده الى تراب ، ومن الطبيعى أن يكون بعض الناس بحكم تكوينهم حسيين جامدين لا يؤمنون بما وراء الدافع المادى ، ويظلون أسرى حواسهم المادية على حساب كبت نوازعهم النفسية العميقة التى لا تظهر الا حينا بعد حين ، وقد سماهم العرب بالدهريين ، وقال فيهم القرآن : « وقالوا ائذا كنا عظاما ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا » (١) فسرد قولهم : « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ويعبرون عن هذا بقولهم : ان هى الا أرحام تدفع وقبور تبلع وما يهلكنا الا الدهر ، ، وكانت هذه النظرة تشيع بين الوثنيين فى الجزيرة العربية .

أما الديانات السماوية فان أساسها جميعا الايمان بالله وباليوم الآخر ، ولكن أسفارهم المقدسة الباقية بين أيدينا الآن عرضت لهذا الموضوع بايجاز يكاد يكون مخلا ماعدا الاسلام

ففى أسفار العهد القديم لا نكاد نجد ذكرا للآخرة الا

(١) الاسراء آية ٤٩ .

عبارات قليلة مبهمة ، وفى هذا يقول آرثر هرتز برج فى دائرة المعارف اليهودية : ان الكتاب المقدس نفسه يعد الحياة الدنيا وحدها هى عالم الانسان ، وليس هناك اعتقاد بعد ذلك فى بعث أو جنة أو نار » (١) .

ويظهر أن الاشارات القليلة الواردة فى بعض أسفار العهد القديم دونها بعض الأحبار فى عصور متأخرة بعد اختلاطهم بأصحاب العقائد الأخرى ، وطائفة الصدوقيين من اليهود تنكر الآخرة انكارا تاما ، وان كان بعض الفريسيين يحاول الالمام بها فى محاولة فاترة .

ونحن ــ معشر المسلمين ــ نؤمن بأن جميع الأنبياء دعوا الى الايمان بالله واليوم الآخر ، والقرآن الكريم ينطق بهذا فى أصرح عبارة ، فابراهيم عليه السلام ــ وهو أبو الأنبياء وخليل الله يدعو ربه قائلا : « ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » (٢) ويقول : « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » (٣) ويقول ضارعا الى الله : « ولا تخزنى يوم يبعثون » (٤) وموسى عليه السلام ــ وهو زعيم بنى اسرائيل وأول أنبياء اليهود ــ يقول : « انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب» (٥) ويقول مع زعماء قومه: «واكتب

(١) مادة Tudaism
(٢) ابراهيم ٤١ .
(٣) الشعراء ٨٢ .
(٤) الشعراء ٨٧ .
(٥) غافر ٢٧

لنـــا فى هذه الدنيـــا حســـــنة وفى الآخـــرة » (١) .

ونحن معشر المسلمين نعلم أيضا أن التوراة وما تلاها من أسفار العهد القديم تمت كتابتها فى عهود متأخرة عن الأنبياء ، وأن يد التحريف والحذف والزيادة شوهت نميرها العذب ، وقد سجل القرآن الكريم هذا فى كثير من آياته منها قوله تعـــالى : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه »(٢) ومنها قوله تعالى فى اليهود : « فويل للذين يكتبون الــكتاب بأيديهـم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (٣) وقال تعالى : « وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الــكذب وهم يعلمون » (٤) .

وقد أصبح موضـــوع تحريف العهد القديم من الحقائق المسلم بها بعد أن تناوله كبار الباحثين فى الشرق والغرب بالدرس والتحقيق (٥) .

(١) الآعراف ١٥٦ .
(٢) النساء ٤٦ .
(٣) البقرة ٧٩ .
(٤) آل عمران ٧٨ .
(٥) راجع رسالة فى اللاهوت والسياسة للفيلسوف الشهير سبيوزا ، تعريب دكتور حسن حنفى ، طبع الهيئة العامة لسنة ١٩٧١ ، والأسفار المقدسة للدكتور على عبد الواحد وافى ، مطبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٦٤ ، والتوراة للدكتور فؤاد حسنين ، مطبعة دار المستقبل سنة ١٩٤٦ .

وقد درســـنا أســـفار العهد القديم كلهـــا ولم نجد فيها الا اشارات عابرة نذكر منها :

١ — فى سفر أيوب ١٩ : ٢٦ « وبعد أن يفنى جلدى هذا وبدون جسدى أرى الله » .

٢ — فى المزامير ١٦ — ٩ — ١١ « جسدى أيضا يسكن مطمئنا لأنك لن تترك نفس فى الهاوية لن تدع تقيك يرى فسادا تعرفنى سبيل الحياة » .

٣ — فى ســفر أشــعياء ٢٦ : ١٩ « نحيا أمواتك تقوم الجثث استيقظوا ترنموا يا سكان التراب » .

٤ — فى سفر دانيال ١٢ : ٢ « وكثيرون من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون هؤلاء الى الحياة الأبدية ، وهؤلاء الى العار للازدراء الأبدى » .

والعبارات فى جميع الأسفار غير دقيقة ، وغير حاسمة فى اثبات يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب الا عبـــارة ســـفر دانيال فانها واضـــحة — وان كان البعث فيهـــا مقصـــورا على الكثيرين لا على الجميع — مع ملاحظة أن سفر دانيال مشكوك فى كونه من أسفار العهد القديم ، وبعض نسخ الكتاب المقدس خال منه ، ونرجح أن بعض هذه العبارات اقتبسها اليهود من أصحاب العقائد الأخرى التى اختلطوا بها ، أو دانوا لها بالولاء ، وفى هذا يقول الباحث اليهودى الدكتور هربرت لو : « أما رجاء القيامة ورجاء الخلود اللذان تعرفهما كل الشعوب فقد انسابا

الى اليهودية من عقائد دخيلة ، وربما أخذتها اليهودية رجاء القيامة من عند الفرس أو بابل ، ورجاء الخلود عن الاغريق ولا سند لأيهما فى اليهودية (١) .

ومن هنا أنكرت فرقة الصدوقيين البعث والنشور ، وهى تعتقد أن الثواب والعقاب يتمان فى الدنيا ، أما الفريسيون فيعتقدون أن الصالحين من الأموات سيبعثون فى هذه الأرض ليشتركوا فى ملك المسيح الذى سيأتى فى آخر الزمن ، ويدخل الناس جميعا فى ديانة اليهود ، ولا يزالون ينتظرون ظهوره حتى اليوم (٢) .

أما فى الديانة المسيحية فاننا نجد اشارات كثيرة من أهمها عبارة وردت على لسان السيد المسيح عليه السلام ، وتكررت هذه العبارة فى انجيل متى ٢٢ : ٣٠ — ٣٢ ، وفى انجيل مرقس ١٢ : ١٨ — ٢٧ ، ثم وردت مبسوطة فى انجيل لوقا ٣٠ : ٣٤ — ٣٨ ونصها فيه : « فأجاب وقال لهم يسوع : أبناء هذا الدهر (٣) يزوجون ويزوجون ولكن الذين حسبوا أهلا للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يزوجون ولا يزوجون اذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضا (٤) لأنهم مثل الملائكة وهم

(١) اديان العالم الكبرى لخصه عن الانجليزية حبيب سعيد ، مطبعة النيل المسيحية ص ٧٤ .
(٢) الأسفار المقدسة ص ٢٩ .
(٣) يقصد الحياة الدنيا .
(٤) الحياة الأبدية لا تنافى الزواج ، وان كانت فى الظاهر لا تتسق مع الانجاب .

أبناء الله (١) ، اذ هم أبناء القيامة ، وأما أن الموتى يقومون فقد دل عليه موسى أيضا فى أمر العليقة كما يقول الرب اله ابراهيم واله اسحق واله يعقوب » وليس هو اله أموات بل اله أحياء لأن الجميع عنده أحياء كما وردت عبارات أخرى فى مواضع عديدة لا يتسع المقام لذكرها .

وورد فى أعمال الرسل ٢٤ : ١٥ « ولى رجاء بالله فيما هم أيضا ينتظرونه انه ستكون قيامة للأموات الأبرار والأثمة » .

وفى رؤيا يوحنا ٢٠ : ٤ « ورأيت عروشا فجلسوا عليها وأعطوا حكما ، ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ، ومن أجل كلمة الله ، والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته .. فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة ، وأما بقية الأموات فلم تعش حتى تتم الألف السنة ، هذه هى القيامة الأولى ، مبارك ومقدس من له نصيب فى القيامة الأولى ، هؤلاء ليس للموت الثانى سلطان عليهم ، بل سيكونون كهنة لله والمسيح ، وسيملكون معه ألف سنة » وهى رموز يؤولها بعض اللاهوتيين بضروب من التكلف والتفسير غير المستساغ ، وفى رسالة بطرس الأولى الى أهل كورنثوس ١٥ : ٤٢ — ٥٠ «هكذا أيضا قيامة الأموات ، يزرع فى فساد ويقام فى عدم فساد ، يزرع فى هوان ، ويقام فى مجد ، يزرع فى ضعف، ويقام فى قوة ، يزرع جسما حيوانيا ، ويقام جسما روحانيا ، يوجد جسم

(١) البنوة هنا مجازية مثل بنوة المسيح لله عندهم فالناس جميعا ومنهم المسيح عليه السلام مشمولون برحمة الله .

حيوانى ، ويوجد جسم روحانى ، هكذا مكتوب أيضا صار آدم الانسان الأول نفسا حية وآدم الأخير روحا محييا ، لكن ليس الروحانى أولا بل الحيوانى ، وبعد ذلك الروحانى ، الانسان الأول من الأرض ترابى ، الانسان الثانى الرب من السماء كما هو الترابى ، هكذا الترابيون أيضا وكما هو السماوى ، هكذا السماويون أيضا ، وكما لبسنا صورة الترابى سنلبس أيضا صورة السماوى فأقول : هذا أيها الاخوة ان لحما ودما لايقدران أن يرثا ملكوت الله ولا يرث الفساد عدم الفساد » .

وجاء فى انجيل يوحنا ٥ : ٢٨ ، ٢٩ « لاتتعجبوا من هذا فانه تأتى ساعة فيها يسمع الذين فى القبور صوته ، فيخرج الذين فعلوا الصالحات الى قيامة الحياة ، والذين عملوا السيئات الى قيامة الدينونة » .

ونلاحظ أن العهد الجديد يقرر أنه لابعث ولا نشور للأجسام ، وانما البعث والنعيم والعذاب للأرواح وحدها — على العكس مما قرره القرآن الكريم فانه يقرر بعثهما معا — بل اننا نجد فى العهد الجديد عبارات تؤكد ما ورد فى سفر دانيال من أن الأرواح لايتم بعثها جميعا ، فقد ورد فى انجيل لوقا «ولكن الذين حسبوا أهلا للحصول على ذلك الدهر والقيامة .. » كان هناك من ليس أهلا للقيامة والبعث (١) ، مع أن انجيل متى يوحى ببعث الروح والجسد معا ١٠ : ٢٨ « بل خافوا بالحرى من الذى

(١) هذه الاشارة تدل على بعث الروح والجسد معا خلافا للنصوص السابقة .

يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم » وفى أعمال الرسل ما يدل على أن البعث أمر غير مقطوع به ، وانما هو رجاء قد يتحقق وقد لا يتحقق ٢٤ : ١٥ « ولى رجاء بالله فيما هم أيضا ينتظرونه ، انه سيكون قيامة للأموات الأبرار والأثمة » .

ونلاحظ أيضا أن الجنة لم يرد لها ذكر فى العهد القديم كله — الا جنة آدم قبل هبوطه الى الأرض (تكوين ٢ : ١٠ ، ١٣ : ١٠) — ولم يرد لها أى ذكر فى العهد الجديد .

أما النار فلا ذكر لها فى العهد القديم ولا فى العهد الجديد الا اشارة عابرة فى انجيل متى ومرقص ، حيث ورد فى انجيل متى ٥ : ٢٢ « من قال لأخيه يا أحمق يكون مستوجبا نار جهنم» وفيه ١٠ : ٢٨ «خافوا أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم» .

وفيه ٢٣ : ١٥ انكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحدا ، ومتى حصل تصنعون ابنا لجهنم وفيه ٢٥ : ٤٢ .. . الى النار الأبدية المعدة لابليس وملائكته (١) وفى انجيل مرقص ٩ : ٤٣ خير ان تدخل الحياة أقطع من تكون لك يدان وتمضى الى جهنم الى النار التى لاتطفأ ، وفى رسالة بطرس الثانية ٢ : ٤ « ان كان الله لم يشفق على ملائكته قد أخطأوا بل فى سلاسل الظلام طرحهم فى جهنم وسلمهم محروسين الى القضاء » .

ان الذى يحاسب الناس يوم القيامة فهو المسيح عليه

(١) لا ندرى من هم ملائكة ابليس ، وما ندريه هو أن لله ملائكة مكرمين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

السلام — كما يزعمون — فقد ورد فى قاموس الكتاب المقدس ص ٣٨٢ وقد أعطيت الدينونة للرب يسوع المسيح فهو الديان الذى يقف أمامه جميع البشر لكى يعطوا حسابا عن أعمالهم فى الجسد خيرا كانت أم شرا • وهذا أمر لا يقره الاسلام لأنه فى هذا اليوم « لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله » (١) •

والتعبير عن النعيم هو الدخول الى أمجاد ملكوت المسيح وأفراحها « والعذاب هو ذهاب الأشرار الى الظلمة الخارجية واليأس الأبدى » •

أما الاسلام فقد فصل الانذار باليوم الآخر تفصيلا دقيقا ، حيث أشار اليه مئات المرات ، وأطلق عليه عشرات الأسماء والأوصاف فهو : يوم الدين ، يوم عظيم ، يوم كبير ، يوم أليم ، يوم محيط ، يوم الفصل ، اليوم الموعود ، اليوم الحق ، يوم معلوم ، يوم مشهود ، يوم عبوس قمطرير (٢) ، يوم الحسرة ، يوم لا مرد له من الله ، يوم البعث ، يوم الفتح ، يوم الحساب ، يوم التلاق ، يوم التنادى يوم الآزفة ، يوم الجمع ، يوم يقوم الأشهاد ، يوم الوعيد ، يوم الخلود ، يوم الخروج ، يوم تمور السماء مورا ، يوم يدعون الى نار جهنم دعا (٣) يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ، يوم عسير ، يوم ثقيل ، يوم التغابن ،

(١) الانفطار ١٩ .
(٢) شديد الإكفهرار قال تعالى على لسان الأبرار « انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » .
(٣) يدفعون اليها دفعا .

يوم الجزاء ، وهو يوم « كان مقداره خمسين ألف سنة (١) ، وفى هذا اليوم « لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا » (٢) •

وهو يوم فيه « يفر المرء من أخيه • وأمه وأبيه • وصاحبته وبنيه • لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » (٣) ، « لا بيع فيه ولا خلال » (٤) ويتم هذا الموعد « يوم تكون السماء كالمهل • وتكون الجبال كالعهن • ولا يسأل حميم حميما • يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه • وصاحبته وأخيه • وفصيلته التى تؤويه • ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه » (٥) •

وهذا « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش » (٦) ، وهو « يوم عسير • على الكافرين غير يسير» (٧) •• والمجال لايتسع لاستيعاب جميع أسماء هذا اليوم وصفاته ، وكلها رهيبة مخيفة مروعة مثل : « القارعة (٨) ، الحاقة (٩) ، الصاخة (١٠) ، الطامة الكبرى (١١) ، وذلك « يوم

(١) سورة المعارج ٤ .
(٢) لقمان ٣٣ .
(٣) عبس ٣٤ — ٣٧ .
(٤) ابراهيم ٣١ .
(٥) المعارج ٨ — ١٤ .
(٦) القارعة ٤ ، ٥ والعهن هو الصوف .
(٧) المدثر ٩ ، ١٠ .
(٨) القارعة ١ — ٣ .
(٩) الحاقة ١ — ٣ .
(١٠) عبس ٣٣ .
(١١) المطففون ٦ .

يقوم الناس لرب العالمين » (١) ، « يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا » (٢) .

نلاحظ أن القرآن الكريم أعطى أهمية كبرى لتقرير وحدانية الله واتصافه بصفات الكمال أولا ، ولاثبات اليوم الآخر ثانيا ، فهما ركنا الايمان وأساسا العقيدة الاسلامية بما يتبعهما من الايمان بالملائكة والرسل والكتب السماوية ، وما تضمه من وحى الهى ، قال تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٣) » ، ويقول جل شأنه : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » (٤) ويقول عز من قائل : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (٥) .

وقد ساق القرآن الكريم كثيرا من الأدلة والبراهين على وحدانية الله ونفى الشرك عنه ، كما ساق كثيرا من البراهين العقلية ، والأدلة المنطقية المستمدة من الحياة الواقعية على البعث والنشور ، وسنعرض لها بعد قليل .

أما كيف تنتهى هذه الحياة الدنيا ؟ وكيف تحل محلها

(١) النازعات ٣٤ .
(٢) النبأ ٣٧ .
(٣) البقرة ٦١ .
(٤) النساء ٣٩ .
(٥) الأحزاب ٢١ .

الحياة الآخرة ؟ ووصف الحياة الآخرة وأهوالها ، وما فيها من نعيم مقيم ، أو عذاب أليم فقد تناولها القرآن الكريم بالتفصيل وسنعطى وصفا موجزا لهذه المشاهد العديدة فيما يلى :

١ — الموت وهو مرحلة انتقالية لكل انسان يودع فيها هذه الحياة ، ويستقبل مرحلة تالية يتعرض فيها جسمه للتحلل ولكن روحه تستقبل عالما آخر لا نعرف عنه الا القليل الذى أشارت اليه الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ومن هذا القليل : ان الشهداء « أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لايضيع أجر المؤمنين » (١) .

فهم أحياء ينعمون برحمة الله وينالون رزقه الكريم ، ويدركون أنباء أصحابهم الأحياء ، ويسعدون بسعادتهم ، ومن الطبيعى أن هذه المنزلة من الحياة البرزخية ينالها وينال أسمى وأرفع منها الأنبياء ثم الصديقون .

وقد أنبأنا القرآن الكريم نبأ فرعون وقومه فى هذه المرحلة البرزخية ، مرحلة ما بين الدنيا وبين الآخرة ، فقال تعالى : « وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »(٢) وقد وردت أحاديث عديدة فى عذاب القبر ونعيمه ، منها ما رواه

(١) آل عمران ١٦٩ — ١٧١ .
(٢) غافر ٤٥ ، ٤٦ .

الشيخان والترمذى والنسائى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، ان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنـــة ، وان كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »

وقد ورد فى الذكر الحكيم أن الملائكة تتلقى الصالحين عند وفاتهم بالتبشير ، قال تعالى : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون • نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »(١).

وفى هذه المرحلة لاسبيل لرجوع أحد الى هذه الحياة الدنيا بجسمه وروحه ، فالله تعالى يقول : « ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون » (٢) ، ويقول عز من قائل : « فلولا ان كنتم غير مدينين • ترجعونها ان كنتم صادقين » (٣) .

أما طبيعة هذه المرحلة فلا سبيل الى معرفتها ، وحسبنا أنها مرحلة نذر العذاب ، أو بشائر النعيم ، وقد ورد فى الحديث الشريف أن الشـــهداء يتمنون الرجوع الى الدنيـــا ليستأنفوا جهادهم فى سبيل الله ، ولكن سنن الله الكونية لا تسمح لهم بالعودة ، ولا سبيل لنقضها .

روى جابر أن أباه عبد الله بن عمرو بن حزام قتل يوم أحد فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا جابر الا أخبرك

(١) فصلت ٣٠ ، ٣١ .
(٢) المؤمنون ١٠٠ .
(٣) الواقعة ٨٦ ، ٨٧ .

ما قال الله لأبيك ؟ » قلت بلى يارسول الله ، قال : « ما كلم الله أحدا الا من وراء حجاب وكلم أباك كفاحا (١) فقال : يا عبد الله تمن على أعطك ، قال : يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية ، فقال : انه سبق منى أنهم اليهـــا لايرجعون ، قال يارب : فأبلغ من ورائى ، فنزل قوله تعالى : (٢) ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء •• » الآية (٣) وفى هذا بلاغ لمن يدعـــون استحضار الأرواح واستخدامها فى العلاج ، وقضـــاء شـــئون العباد ، والله تعالى يقول : « نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين • على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون»(٤). فهى نشأة لا نعلمها ، ولون من ألوان الحياة مجهول لنا ، وحسبنا من معرفته ما روته الآيات الكريمـــة ، والأحاديث الشريفـــة ، ومنها ما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم من أن أرواح الشهداء « فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل » (٥) .

وبعد هذه المرحلة تأتى المرحلة التالية مرحلة زوال الدنيا .

٢ ــ واذا كانت المرحلة الأولى يتساقط فيها البشر فرادى أو جماعات من الحياة الدنيا الى ما بعدها ، فان المرحلة التالية

(١) كلمه بعد استشهاده مواجهة دون حجاب .
(٢) آل عمران ١٦٩ .
(٣) الحديث رواه الترمذى وحسنه ابن ماجة والحاكم وقال صحيح الاسناد .
(٤) الواقعة ٦٠ ، ٦١ .
(٥) من حديث طويل رواه مسلم والترمذى .

لها هى مرحلة نهاية هذه الحياة جميعها ، وتبدأ بالنفخ فى الصور وقد سأل أعرابى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصور فقال : « قرن ينفخ فيه » (١) أى آلة مثل البوق . قال تعالى : « فاذا نقر فى الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير » (٢) .

روى الترمذى والطبرانى وأحمد وابن حبان عن النبى صلى الله عليه وسلم : « كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ .. الحديث » والنفخ فى الصور يتم على مرحلتين : الأولى ايذان بزوال الدنيا ، والثانية ايذان ببدء الحياة الآخرة ، قال تعالى : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون » (٣) أما الزمن بين النفختين فقد ذكر أبو هريرة فيه حديثا شريفا ، ولكنه نسى تحديد العدد ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : ما بين النفختين أربعون . قيل أربعون يوما ؟ قال أبو هريرة : قيل أربعون شهرا ؟ قال أبيت ، قيل أربعون سنة ، قال : أبيت ، .. الحديث وقد يكون الزمن أربعين قرنا ، والغرض من العدد الكثرة لا التحديد ، ومن الخير أن نقف وقفة علمية تؤيد ما ذكره القرآن الكريم والحديث الشريف ، فقد ثبت علميا

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن حبان .
(٢) المدثر ٨ — ١٠ والناقور هو الصور .
(٣) الزمر ٦٨ .
(٤) رواه الشيخان .

أن الكون يمتد فى شكل بيضاوى مثل الصور ، وأنه يضم ملايين الملايين من الشموس والكواكب والمذنبات .. وأنه يتمدد منذ نشأته (١) وسيظل هـذا التمدد مستمرا حتى تضعف روابط الجاذبية فتنفصم العرى ، وتتشقق السماء وتتفطر ، « السماء منفطر به كان وعده مفعولا » (٢) .

وقد ثبت أن الكون يتسع بسرعة مائة ميل فى الثانية الواحدة ، وهذا مصداق لقوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » (٣) وقوله تعالى : « يزيد فى الخلق ما يشاء» (٤) ويشبه العلماء الكون بالمنفاخ الملون البيضاوى الذى يلعب به الأطفال وينفخونه (البالونة) فاذا زاد النفخ فيه انفجر ، أما كيف يتم الانفجار الكونى فقد وصفته الآية الكريمة « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهيـة » (٥) .

والمرحلة الثانية هى البعث والنشور « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » (٦) ويتم هذا

(١) راجع كتاب « الكون يزداد اتساعا » أصدرت ترجمته العربية وزارة التعليم العالى فى مشروع الألف كتاب .
(٢) المزمل ١٨ .
(٣) الذاريات ٤٧ .
(٤) فاطر ١
(٥) الحاقة ١٣ — ١٦ .
(٦) ابراهيم ٤٨ .

« يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير » (١) ، « يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون • خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون » (٢) •

والبعث والنشور يتعلقان بالأجسام والأرواح معا — على العكس مما قررته الاناجيل ، قال تعالى : « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه • بلى قادرين على أن نسوى بنانه » (٣) ، وقال جل شأنه « وأن الله يبعث من فى القبور » (٤) فالموتى « يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » (٥) وقد وردت أحاديث عديدة تدل على أن الناس « يبعثون يوم القيامة حفاة عراة » رواها الشيخان والطبرى •

٣ — ثم تلى ذلك مراحل عديدة منها : مرحلة الأهوال الشديدة التى تصحب موقف القيامة ، وقد تناولت آيات عديدة وصف هذه المشاهد الرهيبة « يوم تمور السماء مورا • وتسير الجبال سيرا » (٦) وذلك « اذا رجت الأرض رجا • وبست الجبال بسا • فكانت هباء منبثا » (٧) ، ويقع هذا « يوم يكون

(١) ق ٤٤ .
(٢) المعارج ٤٣ ، ٤٤ .
(٣) القيامة ٣ ، ٤ .
(٤) الحج ٧ .
(٥) القمر ٧ .
(٦) الطور ٩ ، ١٠ .
(٧) سورة الواقعة ٤ — ٦ .

الناس كالفراش المبثوث • وتكون الجبال كالعهن المنفوش » (١) وحينئذ توضع الموازين القسط لوزن الأعمال وتمام الحساب « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٢) ويشتد الهول والرعب ويطول اليوم ويمتد كأنه بلا نهاية ، لأنه « يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٣) وفى بدء هذا الموقف الرهيب « تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » (٤) •

ثم يأتى موقف الشفاعة وانصراف الأتقياء الى الجنة ، وانصراف الأشقياء الى النار ، وتتوالى المشاهد فى الجنة بألوان النعيم المقيم ، وفيها « مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (٥) ، وهى جنة « عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين (٦) ، أما النار فانها « لا تبقى ولا تذر • لواحة للبشر » (٧) ويساق اليها الكفار « يوم يدعون الى نار جهنم دعا • هذه النار التى كنتم بها تكذبون (٨) وياويلهم اذا دفعوا

(١) سورة القارعة ٤ ، ٥ .
(٢) سورة الأنبياء ٤٧ .
(٣) سورة المعارج ٤ .
(٤) سورة الحج ٢ .
(٥) من حديث رواه الشيخان والترمذى وابن ماجة .
(٦) آل عمران ١٣٣ .
(٧) سورة المدثر ٢٨ ، ٢٩ .
(٨) سورة الطور ١٣ ، ١٤ .

اليها دفعا « اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور • تكاد تميز من الغيظ » (١) ، وهى فسيحة واسعة لا تمتلىء « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » (٢) ؟

أما مشاهد العذاب ومجالى النعيم فقد وردت فيه عشرات الآيات ومئات الأحاديث فى وصف دقيق لا يتسع له المجال (٣) •

والقرآن الكريم حينما يؤكد تأكيدا جازما حقيقة البعث والنشور والحياة الآخرة بما فيها من نعيم مقيم ، وعذاب أبدى — لا يكتفى بتقرير الحقيقة وانما يسوق عليها الأدلة العقلية والبراهين المنطقية ، حتى لا يدع مجالا للمراء أو الانكار ، كما ساق الأدلة المنطقية والبراهين العقلية على وحدانية الله ، واتصافه بصفات الكمال ، ومن الخير أن نسوق بعض هذه الأدلة بايجاز ، ليكون فيها بلاغ للناس وتذكرة لأولى الالباب •

أولا : البرهان الكونى وهو الذى سقناه فى الفصل السابق لاثبات وجود المحرك الأول أو الكمال المطلق ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ونحن نعلم ونشاهد أن الكائنات ناقصة ولكن وراءها قوة عظمى تدفعها الى الكمال الجدير بأسمى ما تصل اليه المخلوقات ، وقد قطعت شوطا كبيرا فى سيرها نحو هذه المرحلة ، ولكن طبيعة هذه الحياة التى نحياها لا تسمح ببلوغ

(١) سورة الملك ٧ ، ٨ •
(٢) سورة ق ٢٠ •
(٣) راجع الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٨٠ — ٤٥٠ وراجع مشاهد القيامة فى القرآن الكريم للاستاذ سيد قطب طبعة دار المعارف

هذه المرحلة ، فان الموت فيها ضرورة حتمية ، ومن الطبيعى أن الموت نهاية لسلسلة من المقدمات التى تمهد له ، من الشيخوخة والأمراض والكوارث الطبيعية ، كالأعاصير والزوابع والفيضانات والحرائق ، والزلازل والبراكين ، والشهب والنيازك والصواعق الى الحروب المدمرة ••••• مما يثبت أن كمال المخلوقات لن يتحقق فى هذه الحياة ، وأن كمالها لا يتحقق الا فى حياة أخرى تالية لهذه الحياة •

فالكمال المطلق للخلاق العظيم يقتضى كمالا مناسبا وموائما للمخلوقات التى صدرت عنه ، ولما كانت الحياة الدنيا بطبيعتها لا تتسع لهذا الكمال ، فمن المنطقى أن تتسع له حياة أخرى تناسبه ، وقد وصف الله الحياة الدنيا بأنها بالنسبة للحياة الأخرى لهو ولعب ، قال تعالى : « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (١) ، وقال جل شأنه : « وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان (٢) لو كانوا يعلمون » (٣) ، ولذات الدنيا فانية ، ومتاعها زائل « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » (٤) ، « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل »(٥)، فالحياة الدنيا زائلة ، وما فيها من متاع هو متاع مؤقت « انما

(١) الأنعام ٣٢ •
(٢) الحيوان الحياة الحقيقية الدائمة •
(٣) العنكبوت ٦٤ •
(٤) النساء ٧٧ •
(٥) التوبة ٣٨ •

هذه الحياة الدنيا متــاع ، وان الآخرة هى دار القرار » (١) ، ومهما نال الانسان من لذات الحياة ومتاعها فهى لذات وقتيــة محدودة يعقبها الشقاء وتكدرها المصائب والأرزاء « فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » (٢) •

واذا كان المهندس القدير لا يرضى لنفسه أن يبنى بنــاء ناقصا ، والمثال المبدع يرفض أن ينحت تمثالا مشوها ، والأديب البارع يستنكف أن ينتج أثرا أدبيا ركيكا ، فما بالك بالخلاق العظيم وهو « العزيز الرحيم • الذى أحسن كل شىء خلقه »(٣)•

« ومن أحســن من الله صبغــة » (٤) ، « فتبــارك الله أحسن الخالقين » (٥) ، وسبحان الذى تفرد بالكمال وهو العلى « الأعلى الذى خلق فســوى • والذى قدر فهــدى » (٦) ، والذى فطر الكائنات ليبلغ بها فى الحياة الأخرى أسمى ما تصل اليه الكائنات « صنع الله الذى أتقن كل شىء » (٧) ، « أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » (٨) ، بلى « انه على رجعه لقادر » (٩) •

(١) سورة غافر ٣٩ .
(٢) سورة الشورى ٣٦ .
(٣) سورة السجدة ٦ ، ٧ .
(٤) سورة البقرة ٣٨ .
(٥) سورة المؤمنون ١٤ .
(٦) سورة الأعلى ١ — ٣ .
(٧) سورة النمل ٨٨ .
(٨) سورة القيامة ٤٠ .
(٩) سورة الطارق ٨ .

٢ — البرهــان القصــدى :

او برهــان الغــاية : وهــو يتفــق مع البرهــان الســابق ، ويزيد عليــه أن الــكمال المطلق يقتضى الحــكمة المطلقة ، فالله تعالى هو المثل الأعلى لجميع الكمالات ، ومنها العدالة المطلقة ، والقدرة المطلقة « وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » (١) ، وحكمة الله تقتضى ألا يخلق شيئا عبثا ، والله تعالى أحكم من أن يخلق الانسان وينفخ فيه من روحه ، ويأمر ملائكته بالسجود له « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (٢) ، ثم يمنحه خلافته فى أرضه ويحمله أمانته بين خلقه ، ثم ينتهى به الى العــدم لمجرد العبث واللهو ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا « أفحسبتم أنمــا خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون • فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم » (٣) ، ان حكمة الانسان — وهو المخلوق الناقص — تسمو به عن اللهو والعبث ، فما بالك بالخــلاق العظيم ؟ « وما خلقنــا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » (٤) ، « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار »(٥) ، « وما

(١) سورة الروم ٢٧ .
(٢) سورة الحجر ٢٩ .
(٣) سورة المؤمنون ١١٥ ، ١١٦ .
(٤) سورة الأنبياء ١٦ .
(٥) سورة ص ٢٧ .

خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين • ما خلقناهما الا بالحق، ولكن أكثرهم لايعلمون •ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » (١) ، واذا كان الخلاق المبدع الحكيم يأمر البشرالمخلوقين الضعفاء أن يرتفعوا عن العبث ، وذلك بألا ينقضوا ماأبرموه فيقول لهم:«ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » (٢) •

فما بالك به وهو الحكيم الخبير ، الذى خلق كل شىء بتقدير دقيق ، وحكمة بالغة وهدف سام ، « انا كل شىء خلقناه بقدر » (٣) ، « فقدرنا فنعم القادرون » (٤) •

فهو سبحانه مالك كل شىء وخالق كل شىء ، وبيده مقاليد السموات والأرض — يصرفهما بحكمته بالقدر المعلوم المناسب لكل خلق ولكل هدف « وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » (٥) وذلك طبقا لحكمة بالغة قد ندرك طرفا منها، ولكننا لا نحيط بأهدافها كلها ، لأن عقولنا محدودة ، ولأنها محكومة بأهوائنا ورغباتنا ، ولو سار الكون وفقا لأهوائنا المتغيرة وميولنا المتقلبة ، وتفكيرنا المتردد ، لفسد كل ما فيه « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » (٦)،

(١) سورة الدخان ٣٨ — ٤٠ .
(٢) سورة النحل ٩٢ .
(٣) سورة القمر ٤٩ .
(٤) سورة المرسلات ٢٣ .
(٥) سورة الحجر ٢١ .
(٦) المؤمنون ٧١ .

وكما يتصف سبحانه بالحكمة البالغة فهو يمتاز بالقدرة المطلقة ، فانه لا يعجزه شىء فى الكون ، وهو على كل شىء قدير « وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض انه كان عليما قديرا » (١) •

فالخلاق العظيم المتصف بكل صفات الكمال لا يرضى عن النقص ، والحكيم العليم يسمو عن العبث ، والقادر على كل شىء يفعل ما تقتضيه حكمته وكماله « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم • انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون • فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون » (٢) •

٣ — البرهان التكوينى :

يردد القرآن هذا البرهان فى صيغ مختلفة ، لأنه برهان واقعى يلمسه الانسان فى نفسه ، كما يلمسه فى كل ما يحيط به فاننا نلمس فى أنفسنا وفى كل ما حولنا من انسان وحيوان ونبات أن الحياة المنبثة فيها ناشئة من جماد ميت ، فالانسان مخلوق من التراب ، فهو يتغذى بالتراب ، ويلبس التراب ، ويسكن التراب ، ويتمتع بالتراب ، ويعود أخيرا فيتحلل الى التراب ، فيأيها الانسان « أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم

(١) سورة فاطر ٤٤ .
(٢) سورة يس ٨١ — ٨٣ .

سواك رجلا » (١) ، « يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم • الذى خلقك فسواك فعدلك • فى أى صورة ما شاء ركبك » (٢) ، ونحن نعلم أن التراب يوطأ بالأقدام ، وأنه أرخص شىء على ظهر البسيطة ، ولكن قدرة الله خلقت منه أسمى كائن عاقل مفكر ، يدب على ظهر البسيطة ، ويسيطر على بحارها ، وأجوائها ، وظاهر أديمها وباطنه « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون » (٣) •

ويتجلى خلق الانسان من التراب فى ثلاث ظواهر :

الظاهرة الأولى :

أنه « من سلالة من طين » (٤) ، فآدم أبو البشر خلقه الله « من صلصال من حمأ مسنون » ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، ثم خلق منه زوجه ، ومن نسلهما تكاثر البشر وانتشروا فى أنحاء الأرض ، والعلماء الماديون أو المنحرفون — وان كانوا لا يؤمنون بآدم فهم يعتقدون أن الخلايا الحية الأولى نشأت من عناصر الماء والطين ، وتهيأت ظروف طبيعية وكيمائية فى هذا الوسط ، فنشأت الخلايا الحية وتكاثرت وتطورت فى مملكة النبات والحيوان من الكائنات الأميبية ذات الخلية الواحدة ، ثم الهلامية عديدة الخلايا ، ثم الفقارية المائية ، ثم الزواحف

(١) سورة الكهف ٣٧ •
(٢) سورة الانفطار ٦ — ٨ •
(٣) سورة الروم ٢٠ •
(٤) سورة المؤمنون ١٢ •

ثم •••• ثم الانسان — فلا مجال للخلاف فى نشأة الحياة من ماء وطين •

الظاهرة الثانية :

أن عناصر التراب تمد النبات بما يلائمه منها ، ثم تتحول فيه هذه العناصر الميتة الى خلايا نباتية حية ، ويتغذى الانسان والحيوان بهذه الخلايا ، فتتحول فيهما الى خلايا حيوانية ، وقد يتغذى الانسان بالخلايا الحيوانية من الحيوان ، فتتحول فيه الى خلايا بشرية ، وكانت كلها فى بادىء أمرها من عناصر التراب « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون » (١) •

الظاهرة الثالثة :

أننا لو أخذنا انسانا وحللنا جسمه فى معمل كيماوى لوجدنا عناصره مقدرة بالنسبة المئوية لأعضائه على النحو التالى :

الأوكسوجين ٦٣ر٣	الكربون ٢٠ر٢	الايدروجين ٩ر٩
النتروجين ٥ر٢	الكالسيوم ٤٥ر٢	الفسفور ١٠ر١
الكلور ١٦ر	الفلور ١٤ر٠	الكبريت ١٤ر٠
البوتاسيوم ١١ر	الصوديوم١ ر	المغنسيوم ٠٧ر

الحديد ١ ٠ر٠ آثار ضيئلة من اليود والسليكون والمنجنيز — وهذه العناصر الأرضية موجودة كلها فى التربة ، وفى النبات بنسب مختلفة عن جسم الانسان ، وان كان الترتيب التنازلى

(١) يس ٣٣ •

متسقا فى الحالين (١) .

وهذه الظواهر الثلاث كلها تنبه الانسان الى أنه خلق من عناصر التراب، ثم مر بأطوار مختلفة ، وسوف يعود بعدها الى التراب حيث تتحلل عناصر جسمه وتعود الى حالتها الأولى ، وقد يتغذى بها النبات ثم الحيوان ثم الانسان ،فالذى خلق الانسان من قبضة من التراب ، ثم نفخ فيه من روحه ومنحه الحواس والعقل وسخر له الأرض والجو والبحار وهداه الى ما كشفه من مخترعات علمية مكنته من تحطيم الذرة ، والتحليق فى الفضاء ، والغوص فى أعماق المحيطات ، ثم الوصول الى القمر ... ان الذى فعل هذا كله لا يعجز أن يعيده مرة ثانية الى الحياة ، فتبارك « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين .ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ..» (٢) يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على

(١) راجع كتاب الأغذية للاستاذ حسن عبد السلام طبع دار المعارف سنة ١٩٤٤ ص ١٥ .

(٢) سورة السجدة ٧ — ٩ .

كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » (١) والآية تسوق ثلاثة أدلة على البعث والنشور أولها منتزع من الانسان نفسه المخلوق من التراب والذى تطور أطوارا عديدة يسوقها القرآن الكريم فى اعجاز ودقة وروعة ، ويسوق حقائق علمية — لايتسع المقام لتفصيلها — حتى تصل بالانسان الى تمام تكوينه ، وقد بلغت خلايا جسمه ملايين الملايين (٢) تموت فى كل دقيقة منها ملايين ، وتتجدد بدلا منها ملايين ، وقد تخصص كل منها فى عمله ، فمنها خلايا الأعصاب أو خلايا الجهاز الدورى أو التناسلى أو الهضمى أو الحواس الخمس ، أو الجلد أو العظم أو الكرات البيضاء أو الكرات الحمراء (٣) .. ثم تنتهى حياته ليعود مرة أخرى ،والدليل الثانى منتزع من النبات الذى يأكله الانسان ويلبسه ،وينتفع به فى دوائه ومسكنه وجميع شئون حياته ، والنبات منتزع أيضا من العناصر الميتة الجامدة الهامدة، التى يتكون منها التراب، فما يكاد الماء يلمسها حتى تهتز وتنمو وتنبت أنواعا شتى من النبات « صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (٤) .

(١) سورة الحج ٥ — ٧ .

(٢) يقدرها العلماء بنحو ستين مليون مليون من الخلايا الحية وكل منها كائن حى مستقل .

(٣) فى كل مليمتر مكعب من الدم حوالى ثمانية آلاف كرة بيضاء ونحو خمسة ملايين كرة حمراء .

(٤) الرعد ٤ — والصنوان جمع صنو وهو الشبه .

ثم يسوق الدليل الثالث من قدرة الله وحكمته وكماله ، فانه سبحانه الحق « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون » (١) والحكيم القادر الكامل يسمو عن العبث واللهو والباطل ، وقد لمستم أيها الناس — ان كنتم مازلتم فى ريب من البعث — أنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ، فما بالكم تنكرون البعث والنشور .

وبعد هذه الأدلة الحاسمة ، يصدر حكمه القاطع المنطقى الذى لا مجال فيه للخلاف والجدل مقررا أن الحياة الدنيا فانية « وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » وتتكرر هذه الأدلة فى صيغ شتى ، منها قوله تعالى : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، ان الذى أحياها لمحيى الموتى انه على كل شىء قدير »(٢) وقوله تعالى : « فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » (٣) وقد يضيف اليها دليلا عظيما رائعا بالغ الروعة والقوة وهو خلق السماء والأرض وهما أعظم من خلق الانسان « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٤) « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات

(١) سورة يونس ٣١ .
(٢) سورة فصلت ٣٩ .
(٣) سورة الروم ٥٠ .
(٤) سورة غافر ٥٧ .

والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بلى انه على كل شىء قدير »(١) وتتوالى الأدلة والبراهين والأمثلة الواقعية فى آيات عديدة لا يتسع لها المقام الآن .

٤ — برهان العدالة أو المثل الأعلى :

ان الله سبحانه وتعالى تفرد بالمثل الأعلى فى السموات والأرض ، كما تفرد بالعدالة المطلقة فلا يظلم أحدا بل يضع « الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا » (٢) والله سبحانه رحيم بعباده ، يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر ، « وما ربك بظلام للعبيد » (٣) « ولا يظلم ربك أحد » (٤) ، والدنيا كما نراها حافلة بالظلم ، لأنها دار ابتلاء يدفع بعض الناس فيها بعضا لأهداف اقتضتها حكمة الله « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » (٥) ويفتن بعض الناس فيها بعضا لأهداف اقتضتها حكمة الله « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون » (٦) .

ان تقدم الحضارة والعمران فى هذه الحياة الدنيا قائم على التنافس والصراع وتنازع البقاء ، « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . الا من رحم ربك ولذلك

(١) سورة الأحقاف ٣٣ .
(٢) سورة الأنبياء ٤٧ .
(٣) سورة فصلت ٤٦ .
(٤) سورة الكهف ٤٩ .
(٥) البقرة ٢٥١ .
(٦) سورة الفرقان ٢٠ .

خلقهم » (١) .

واذا كانت هذه هى طبيعة الحياة فلابد أن تليها حياة أخرى تعوض الأحياء فى الدنيا عما حل بهم فيها من بلاء ، وما أصابهم فيها من أرزاء ، وما وقع عليهم من ظلم وعدوان . فنحن نرى من طوائف الناس فى الدنيا من يعيش فى فقر مدقع ، أو صحة ضعيفة مؤلمة ، ومنهم من فقد بصره أو عضوا من أعضائه ، ومنهم من يعيشون فى الغابات فى حالة همجية يفترشون التراب ويلتحفون السماء ، ويرتعون كالأنعام ، ومنهم من يعيشون فى ثلوج القطب الشمالى فى أقسى الظروف وأعنف المشقات — ولكن هناك أيضا من يعيشون ملوكا وأمراء أو حكاما أو أصحاء أو أثرياء أو يتمتعون بأشهى متع الحياة ، ويقع بين الجميع احتكاك وتنافس ، ويحدث ظلم وبغى وعدوان واستعلاء .. وهناك أتقياء محرومون ، وهناك عصاة منعمون ، وهناك من غمرهم الله بنعمه فقابلوها بالجحود والنكران ، ومن قدر عليهم أرزاقهم فقابلوها بالصبر والشكر والرجاء ، فلابد للخلاق العظيم الكامل العادل الرحيم أن يعيد التوازن فى حياة أخرى غير هذه الحياة ، لاتكون دار ابتلاء وانما تكون دار جزاء « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » (٢) .

وفى هذه الدار توضع الموازين الدقيقة للأعمال « فمن يعمل

(١) سورة هود ١١٨ ، ١١٩ .
(٢) القصص ٨٣ .

مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (١) وسيسأل الله فيها أصحاب النعيم عما أدوه من حقوق الفقراء « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » (٢) فمن كان كسبه من حلال وسعيه فى حلال وأدى حق الله وحق الفقراء فيما كسبه فهو فى نعيم مقيم ، وأما من أغفل هذه الحقوق وانغمس فى لذاته وشهواته فهو ممن يقال لهم : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » (٣) ، ويومئذ يكون الجزاء العادل « كل امرىء بما كسب رهين » (٤) وكل نفس « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » (٥) ويرى كل انسان ما عمله مسجلا عليه فى كتاب « لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » (٦) روى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عمره فيم أفناه ؟ وعن علمه ما عمل به ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه » وروى مسلم والترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء

(١) الزلزلة ٧ ، ٨ .
(٢) التكاثر ٨ .
(٣) الأحقاف ٢٠ .
(٤) الطور ٢١ .
(٥) البقرة ٢٨٦ .
(٦) الكهف ٤٩ .

من الشاة القرناء تنطحها » (١) .

٥ ــ برهان التناوب : أو البدء والعودة :

من سنن الله الكونيـــة أنه جعل الازدواج قواما لجميع الكائنات ، ففى الانسان والحيوان نجد الذكورة والأنوثة ، وعن طريقهما تمتد الحياة وتتجدد الأجيـــال « وأنه خلق الزوجين الذكـــر والأنثى • من نطفة اذا تمنى • وأن عليـــه النشـــأة الأخرى » (٢) وليس الازدواج مقصـــورا على مملكة الحيوان والنبات ، بل يسرى أيضا فى عالم الجماد ، والله تعالى يقول : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٣) وقد هدانا الله سبحانه الى ادراك بعض أسرار نواميســـه الكونية فى العصر الحديث ، فنحن نعلم أن النبـــات كالحيوان ، فيـــه الذكورة والأنوثة ، كما علمنا أن عناصر الجماد تتكون من الذرات ، وأن كل ذرة مزدوجة من نواة (بروتون) وكويكب أو أكثر (الكترون) يدور حولها ، وأن النواة كهرباء موجبة والكويكب كهرباء سالبة ، فكل مافى الكون مزدوج ولا يتم كيانه الا بهذا الازدواج ، والكون كله مكون من طاقة ومن مادة ، وقد عرفنـــا أن المادة تتكون من ذرات مزدوجة ، وأن الطاقة تتكون من أقطاب سالبة أو موجبة ، كالكهرباء والمغناطيسية والأشعة وكلها موجات متتالية مزدوجة « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم

(١) الجلجاء : الشاة التى لاقرن لها والقرناء التى لها قرنان .
(٢) النجـــم ٤٥ ــ ٤٧ .
(٣) الذاريات ٤٩ .

ومما لايعلمون » (١) ولا يمكن أن يتم كيـــان شىء الا بهـــذا الازدواج ، فامتزاج الذكر بالأنثى ينتج عنه النسل ، وامتداد الحياة ، وامتزاج القطب الســـالب بالموجب يتم دورة الكهرباء أو المغناطيســـية ، والنتيجة أن كل ما فى الكون محتـــاج الى ما يكمله ، وانفرد بالوحدانية المطلقة الله وحده فانه غير محتاج الى ما يكمله ، « قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » (٢) ، وكل ما تشاهده أو تدركه خاضـــع لهذا الازدواج من ليل ونهار ، وحياة وموت ، وجسم وروح ، وأرض وسماء ، وطاقة ومادة ، حتى الصفات والأحوال : من قوة وضعف ، ورضى وغضب ، وغنى وفقر ، وصحة ومرض ، وخير وشر ، وانسان وحيوان ، ونبـــات وجماد ، وأرض وسماء ، وكواكب ونجوم (٣) وناطق وصامت ، فسبحانك اللهم « تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى » (٤) وهذه آية من آيـــات الله الدالة على حكمته السامية « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون • قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من

(١) ســـورة يس ٣٦ .
(٢) سورة الاخلاص ، والصـــمد : الذى يحتاج اليـــه غيره ولا يحتاج هو الى أحد .
(٣) الكواكب هى الاجرام الخامدة مثل الأرض والقمر والمريخ والنجوم هى الاجرام الملتهبة كالشمس .
(٤) سورة آل عمران ٢٧ .

اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون • ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (١) والانسان نفسه خرج من العدم الى الوجود ، ومن الموت الي الحياة « أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » (٢) وسيعود الى الموت ثم الى الحيـــاة اكمالا للدورة « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليـــه ترجعون » (٣) فالذى بث الحيـــاة فى الميت سينزعها منه ثم يعيدها اليه « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا » (٤) • والتناوب هو سنة الله فى آياته الكونية ، بثه فيها حتى يصـــل بهـــا الى أســـمى ما تصل اليه الكائنات ، ونحن نشاهد الماء ، ويلمس كل منا دوراته المتوالية ، فهو يتبخر من البحار والمحيطات ، ثم يرتفـــع فى طبقات الجو العليا خاليـــا نقيـــا من الأملاح والمعادن ، ثم تتكاثف السحب وتسقط أمطارا غزيرة مكونة الأنهار والغدران والمياه الجوفية التي تتسرب جميعها ـ بعد أن تأخذ الكائنـــات الحية نصيبها منها ـ الى البحار والمحيطات مرة ثانية وفى أثناء هذه الدورة وقبل نهايتها ، يخضع الماء لتحولات تشبه المعجزات ، اذ تتكون به مركبات عضوية لا يحصى عددها ، تظهر فى ذلك الحشد من الكائنات الحية التى منحتها الطبيعة الكثير من القوى الغامضة ،

(١) القصص ٧١ ــ ٧٣ .
(٢) سورة مريم ٢٦ .
(٣) البقرة ٢٨ .
(٤) ســـورة غافر ١١ .

والتى تتركب أجســـامها مع ذلك من مادة أكثر من نصفها ماء ، وبيت القصيد هو أن الماء فى المركبات العضوية لا يدخل أجسام الكائنات الحية الا عن طريق التربة ، والنبات الذى ينمو عليها ، فالتربة اذن هى حلقة الاتصالات بين عالم الجماد وعالم الكائنات الحيـــة (١) قال تعـــالى : « وجعلنـــا من المـــاء كل شىء حى أفلا يؤمنون » (٢) فالبدء والاعادة من سنن الله الكونية « انه هو يبـــدىء ويعيد » (٣) « انه يبـــدأ الخلق ثم يعيده » (٤) وكل ما تقع عليـــه أنظارنا يتجلى فيه البدء والاعـــادة « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير »(٥)

والله ســـبحانه وتعالى بدأ الحياة فى هذه الدنيا ، وطبقا للسنن الكونية سيعيد الحياة فى دورة تالية هى حياة الآخرة ، وهنا يقف التوالى والتناوب لأن الدار الآخـــرة خالدة كاملة ، فلا حاجة فيها للتتابع والتناوب لأنها دار البقاء ، ومن المعروف فى مألوفنا أن الاعادة أيسر من البدء والله تعالى يقول : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » (٦) والبدء والاعادة بالنسبة الى الله سبحانه كلاهما يسير هين « انما أمره اذا أراد

(١) البيئة والحياة تأليف م . س . اندرسون تعريب الدكتور فوزى فهيم جاد الله مطبعة الرسالة ص ١٨ .
(٢) ســـورة الأنبيـــاء ٣٠ .
(٣) البروج ١٣ .
(٤) يونس ٨ .
(٥) العنكبوت ١٩ .
(٦) سورة الروم ٢٧ .

شيئا أن يقول له كن فيكون » (١) ولكن الله سبحانه يضرب لنا الأمثال المناسبة لعقولنا لتستطيع ادراكها وفهمها « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (٢) والله سبحانه خلقنا من الأرض وتتم الدورة باعادتنا اليها ، ثم بعثنا منها « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (٣) « والله أنبتكم من الأرض نباتا • ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا » (٤) •

٦ — برهان اليقظة والنوم :

وهو تكملة للبرهان السابق فكل كائن حي يتنبه فيحس ما حوله ويتصرف طبقا لهذا الاحساس بما يتيحه له تكوينه الخلقي ثم يقع في سبات عميق يكاد يفقد فيه شعوره بنفسه وبما يحيط به في حالة أشبه بحالة الأموات « اللاشعور » ، وبعض الحيوانات كالزواحف والدببة القطبية تقع في سبات عميق يمتد بضعة أشهر في كل عام ، وهو الذي يسميه علماء الأحياء بالبيات الشتوى ، وبعض أجنة البذور تظل في حالة جمود وخمود أشبه بالموت ، وقد تمتد هذه الحال آلاف السنين حتى يوقظها الماء ، وتتوفر لها التربة الصالحة ، وتتيسر عوامل الانبات فتدب فيها الحياة وتنمو وتزدهر وتتكاثر ، وكذلك حال

(١) سورة يس ٨٢ .
(٢) سورة الحشر ٢١ .
(٣) سورة طه ٥٥ .
(٤) سورة نوح ١٧ — ١٨ .

بعض الجراثيم يصادفها جو غير مناسب فتقع فيما يشبه الموت وتمتد هذه الحالة آلاف السنين حتى يأتى الظرف المناسب ، فتعود الى الحياة ، وخلايا الجسم الانسانى لا تموت بموته ، بل تمتد حياة بعضها الى ما بعد وفاته بأيام ، وقد تمت تجارب عديدة ثبت فيها طول الأظافر والشعر بعد الوفاة ببضعة أيام ، بل أمكن حفظ الدم والعيون وبعض أجزاء الجسم البشرى بعد وفاة أصحابها شهورا عديدة لاستخدامها فى علاج الأحياء •

والنوم حالة عجيبة يكاد الانسان ينعزل فيها عن الحياة ويستأنف حياة أخرى لاتتقيد بزمان ولا بمكان ، ولا بالضوابط الاجتماعية ولا بالسنن الكونية ، فيرى النائم أحداثا وقعت فى أزمان سحيقة ماضية أو آتية ، ويرى أماكن بعيدة فى كوكبه الأرضى أو فى كواكب أخرى ، وقد يرى مشاهد من الحياة الآخرة ، ثم يرى نفسه طائرا ، فى الهواء أو غائصا فى الماء دون آلات مساعدة ، أليس هذا ارهاصا بأن له حياة أخرى غير هذه الحياة ، وأن حياته الأخرى ستكون طليقة من كل قيود الحياة الدنيا ؟ ان النوم لون من ألوان الوفاة ، واليقظة لون من ألوان البعث والنشور ، قال تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم اليه مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون » (١) •

فالآية الكريمة تحدثنا عن وفاة بالليل وبعث فى النهار يتواليان الى أجل مسمى معين ، ثم تقرن هذا بأن مرجعنا بعد

(١) سورة الأنعام ٦٠ .

الحياة الدنيا الى الله فى حياة تالية ومرحلة أخرى محددة هى مرحلة الجزاء ، والآية التالية لها تحدثنا أن الله سبحانه مسيطر على عباده ، قاهر لهم ، يحفظهم فى الدنيا بقوى كبرى يسخرها لهذا الحفظ أو لتسجيل الأعمال الى أمد محدود ، ثم تنتهى الحياة دون تهاون أو تفريط « وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون » (١) .

ثم تجىء الآية التالية فتحسم القضية حسما منطقيا قاطعا « ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » (٢) ثم يعود القرآن الكريم فيعرض القضية عرضا رائعا فى آية أخرى يقرن فيها النوم بالوفاة ، ويوازن بين حالة اليقظة وحالة البعث والنشور حيث يقول : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٣) فالآية الكريمة تقرر أن الله يتوفى الأنفس حين موتها ، ويتوفى الأنفس أيضا فى حالة نومها ، ففى حالة الموت تظل النفوس فى قبضته حتى يتم بعثها يوم الجزاء ، وفى الحالة الثانية — حالة النوم — يرسل الله الأنفس الى أجسادها فى الدنيا فتستيقظ من سباتها وتعود لاستئناف حياتها الى أمد محدود ، ثم تقع فى الموت المستمر الى يوم البعث والنشور ،

(١) سورة الأنعام ٦١ .
(٢) سورة الأنعام ٦٢ .
(٣) سورة الزمر ٤٢ .

ثم تلفت الآية نظرنا الى مافى هذه الحالات من تشابه واشارات معبرة ، وأدلة واضحة على تعاقب الموت والحياة ، كما يتعاقب النوم واليقظة والليل والنهار « ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وتبارك الخلاق العظيم فانه « كما بدأكم تعودون » (١) هذه اشارات موجزة لبعض الأدلة المنطقية والبراهين العقلية التى ساقها القرآن الكريم ، لاثبات قضية البعث والنشور ، وهناك أدلة أخرى عديدة لايتسع لها المقام .

وفى هذا بلاغ لمن يتساءلون فى دهشة وعجب « ائذا كنا عظاما ورفاتا ائنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ » وقد أجابهم الله عن تساؤلهم هذا بقوله : « قل كونوا حجارة أو حديدا . أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة » (٢) .

ولهؤلاء وأمثالهم نسوق مثلا عظيما واقعيا من صنع الانسان ، فان أحدنا يقف أمام أجهزة الاذاعة المرئية (التليفزيون) فتلتقط صوره وأصواته ، وتبثها فى مئات الآلاف من النقط والموجات على متن الأثير ، فى جميع الجهات الى آلاف الأميال عن طريق الأقمار الصناعية ، ثم نجلس فى بيوتنا المغلقة الى أجهزة التليفزيون ، فاذا بها تلتقط مئات الآلاف من النقط والموجات وتعيدها كما كانت تماما فنحيا معها ونضحك لضحكها ، ونبكى لبكائها ، وننفعل بها راضين أو ساخطين ، فاذا كانت آلة

(١) الأعراف ٢٩ .
(٢) سورة الاسراء ٤٩ — ٥١ .

صغيرة محدودة صماء استطاعت أن تجمع هذه الجزئيات المتناثرة وتعيدها الى صورها الأولى فما بالك بالخلاق العظيم الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ؟ قال تعالى « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم • قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم • الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون • أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم • انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون • فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون » (١) •

---

(١) يس ٧٨ — ٨٣ — ونار الشجر الأخضر مستمدة من حرارة الشمس عن طريق التمثيل الخضرى « الكلورفيل » وهي آية من آيات الله ان تكون خضرة النبات وسيلة لاختزان حرارة الشمس تتحول الى نار عند اللزوم .

الفصل الخامس

العمل الصالح

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »

ان الدين نزعة فطرية ، وهو — مع هذا — ضرورة حتمية ، والدين لايكون كاملا الا اذا قام على أركان ثلاثة : الايمان بالله، والايمان باليوم الآخر — وقد تحدثنا عنهما فى الفصلين السابقين — أما الركن الثالث ، فهو العمل الصالح ، وهو ثمرة الايمان ، فالايمان دون عمل صالح بذرة فاسدة ، أو هو ايمان مدخول منحول ، والعمل الصالح اذا لم يكن منبعثا عن ايمان عميق ، فهو هباء منثور • قال تعالى فى حديثه عن الكفار : « وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » وقال سبحانه : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه » وقال عز وجل : « أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » •

ولهذا جاء الايمان فى القرآن الكريم مقرونا بالعمل الصالح• قال تعالى : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » وقال سبحانه : « ومن يعمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » •

والعمل الصالح لابد أن يكون منبعثا عن ايمـــان عميق ، وأن يكون نقيا من الرياء والنفاق . قال تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه : رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمته عليه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت حتى استشهدت ، قال : كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ليقـــال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهـــه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه عليه فعرفهـــا ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار » رواه مسلم .

والهدف من العمل الصالح أن يكون خالصـــا لوجه الله ، سواء كان عملا دينيا أو عملا دنيويا ، فالاســـلام يحبذ العمل الدينى والعمل الدنيوى معا ، مادام الهدف منهما هو صـــلاح أحوال الفرد والجماعة ، دون غش أو استعلاء ، فالدنيا مزرعة

الآخرة ، والسعى فى سـبيل الرزق وفى تعمير الأرض كلاهما عبادة لله ، قال تعـــالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » وقال سبحانه : « وســـخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه » وهذا الخلق وهذا التســـخير لننتفع بهما فى احراز ثواب الدنيا والآخرة معا ، ولهذا كان العمل الصالح فى الاسلام أسمى ما يقربنا الى الله .

روى ابن عســـاكر وأبو نعيم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ان من الذنوب ذنوبا لايكفرها الصلاة ولا الصـــيام ولا الحج ولا العمرة ، يكفرها الهموم فى طلب المعيشة » .

وروى مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « دينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك » .

وروى الشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم : « انك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله الا أجـــرت عليها ، حتى ما تجعله فى (فى) امرأتك » أى فى فمها .

وروى الطبرانى باسناد جيد عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : « مر رجل جلد نشط على النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقالوا يارسول الله لو كان هـــذا فى ســـبيل الله ؟ فقال عليه الصلاة والســـلام : ان كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله ، وان كان خـــرج يسعى على أبوين

شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان » •

وروى الشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه جاءه رجل يستأذنه فى الجهاد ، فقال : « أحى والداك ؟ قال : نعم ، قال : « ففيهما فجاهد » •

والاسلام يحضنا حضا على العمل ، ولهذا قرن العبادة بالعمل الدنيوى الصالح ، فكلاهما عبادة لله ، اذا أريد بهما وجه الله ، قال تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » •

وأباح الله التجارة لمن يؤدون مناسك الحج ، حيث قال سبحانه : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » وقال تعالى : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق • ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات •• » •

أما اذا أريد بالعبادة أو العمل حب الشهرة أو الفخر ، فكلاهما اثم عظيم • روى البيهقى فى شعب الايمان عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من صام يرائى فقد أشرك ، ومن صلى يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك » •

والاسلام ينوه بالعمل ، ويجعله وسيلة للمغفرة • روى

الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له » •

ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم رجلا خشنت يده حتى تورمت ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هذه يد يحبها الله ورسوله » وفى رواية : « هذه يد لاتمسها النار » •

وثواب العمل يلحق صاحبه من حيث لا يحتسب — قال صلى الله عليه وسلم : « من غرس غرسا لم يأكل منه آدمى ولا خلق من خلق الله الا كان له صدقة » •

والاسلام يكره للمسلم أن يركن الى البطالة • فقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فاذا فرغت فانصب • والى ربك فارغب » [1] وقال صلى الله عليه وسلم : « أشد الناس عذابا يوم القيامة المكفى الفارغ » رواه الديلمى فى مسند الفردوس ، أى الذى يكف عن العمل ويركن الى الكسل لأن لديه ما يكفيه •

وبلغ من تقديس الاسلام للعمل أنه يحض المسلم على أن يواصل العمل حتى يلقى الله • روى البخارى فى التاريخ وأحمد فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : « اذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فان استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها » •

والاسلام يحمل المسلمين حملا على التماس الغنى • وقد

(١) سورة الانشراح ٧ ، ٨ .

من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه وجده فقيرا فأغناه ، قال تعالى : « ووجدك عائلا فأغنى » (١) .

وعاب على الفقراء استكانتهم وضعفهم ، ونبههم الى أن يلتمسوا الرزق فى مناكب الأرض ، فان أرض الله واسعة ، والله سخر لهم البر والبحر ، ليستغلوا ما فيهما من الخيرات ، فاذا ضاق بهم الرزق فى بلد ، فعليهم أن يهاجروا الى بلد آخر .
قال تعالى : « والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا » (٢) .

وقال سبحانه : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (٣) .

ولقد أنذر الله الذين يقبعون فى أوطانهم ، راضين بالفقر والذل ، وأوعدهم العذاب الأليم ، قال تعالى : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا . ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا

(١) سورة الضحى ٨ .
(٢) سورة نوح ١٩ ، ٢٠ .
(٣) سورة الملك ١٥ .

رحيما » (١) .

والهجرة للجهاد : هجرة فى سبيل الله ، والهجرة فى طلب العلم أو نشره هجرة فى سبيل الله ، والهجرة فى سبيل الرزق هجرة فى سبيل الله .

فالاسلام يحارب الفاقة ، ويحض على التخلص منها ، ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكثر فى دعائه من الاستعاذة بالله من الفقر ، روى أبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم دعاء النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم انى أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة ، وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم » .
وروى مسلم والترمذى وابن ماجة من أدعية النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم انى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » .

والمؤمن المكافح فى سبيل رزقه قريب الى الله ويحبه الله .
قال صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى يحب العبد المؤمن المحترف » رواه الطبرانى والبيهقى .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « ان الله تعالى يحب العبد التقى الغنى الخفى » أى الذى لايتفاخر بتقواه أو غناه . رواه مسلم وأحمد .

والاسلام يجعل العامل مسئولا عن أداء عمله ، يستوى

(١) سورة النساء ٩٧ — ١٠٠ .

فى هذا من يعمل أميرا أو من يعمل أجيرا • قال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالامام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ، وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ، وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » رواه الشيخان •

وعلى صاحب العمل أن يعطى الأجير حقه كاملا بمجرد انتهاء عمله • قال صلى الله عليه وسلم « اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه ، وأعلموه أجره وهو فى عمله » رواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى وأبو يعلى •

وقد نهى الاسلام نهيا حاسما عن الغش فى العمل والتجارة• قال صلى الله عليه وسلم « من غشنا فليس منا ، والمكر والخداع فى النار » رواه الترمذى وابن ماجة والطبرانى •

كما نهى عن تطفيف الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم، قال تعالى : « ويل للمطففين • الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون • واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون • ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم • يوم يقوم الناس لرب العالمين » •

وقال سبحانه وتعالى « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » •

ونهى أيضا عن الاحتكار ، وتوعد القائمين به ، قال صلى الله

عليه وسلم : « من احتكر حكرة يريد أن يغلى بها على المسلمين فهو خاطىء ، وقد برئت منه ذمة الله ورسوله » رواه أحمد والحاكم •

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « من احتكر طعاما على أمتى أربعين يوما وتصدق به لم يقبل منه » رواه ابن عساكر •

وقال عليه الصلاة والسلام : « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والافلاس » رواه أحمد وابن ماجه •

وقد أوصانا الرسول صلى الله عليه وسلم بالسماحة فى كل مانباشره من أعمال فقال : « رحم الله عبدا سمحا اذا باع ، سمحا اذا اشترى ، سمحا اذا قضى ، سمحا اذا اقتضى » رواه البخارى وابن ماجة •

ومن العمل الصالح فى الاسلام : التعاون فى سبيل الخير • قال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » •

ومنه التواصى بالحق والتواصى بالخير ، قال تعالى : « والعصر • ان الانسان لفى خسر • الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » •

ومنه النصيحة ، فلا يحل لمسلم أن يرى مسلما يرتكب خطأ ويتركه ليقع فيه نتيجة أخطائه • قال صلى الله عليه وسلم « الدين النصيحة ، قلنا : لمن ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم •

وقال جرير بن عبد الله : « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والنصح لكل مسلم » رواه الشيخان .

ومن العمل الصالح فى الاسلام : أن يكون المؤمن على علاقة وثيقة بالمؤمنين ، وأن يعاملهم معاملة الأخ لأخيه . قال تعالى : « انما المؤمنون اخوة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه مسلم وأحمد .

وروى الدارقطنى عنه صلوات الله وسلامه عليه « المؤمن يألف ويؤلف ، ولاخير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وخير الناس أنفعهم للناس » رواه الدارقطنى وأحمد .

وروى مسلم عنه صلى الله عليه وسلم : « المؤمن أخو المؤمن ، فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر » .

وروى الشيخان عنه صلوات الله وسلامه عليه : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

ولن يكمل ايمان المؤمنين الا بتوثيق روابط المحبة القائمة بينهم . قال عليه الصلاة والسلام : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » رواه الشيخان .

وتوثيق الصلات بين المسلمين يتوقف على التعاون التام فى

جلب المنافع ودفع الأضرار قال صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لايظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » رواه الشيخان وغيرهما .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « المسلم أخو المسلم ، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » رواه الترمذى .

وحسب العمل شرفا أن الأنبياء جميعا كانوا يعملون ولا يتعالون عن أداء أى عمل مشروع . روى البخارى وابن ماجة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله نبيا الا رعى الغنم ، وأنا كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط » ونوح عليه السلام كان يعمل نجارا فى بناء سفينته وابراهيم عمل بناء فى بناء الكعبة هو وابنه اسماعيل عليهما السلام ، وموسى عمل أجيرا فى مدين عشر سنوات ، وأقام الجدار مع العبد الصالح فى القرية التى أبت أن تضيفهما ، وداود عليه السلام عمل حدادا يأكل من كسب يده ، وهو ملك . قال صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاما قط ، خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » رواه البخارى .

وكان زكريا عليه السلام نجارا ، كما ورد فى صحيح مسلم .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعمل أجيرا عند السيدة خديجة فى مباشرة تجارتها قبل أن يبنى بها ، وقد شارك صحابته فى اقامة مسجده بالمدينة ، كما شاركهم فى حفر الخندق. وكان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب ماشيته ، ويقم بيته ، ويحمل ما يشتريه ، ويشارك أصحابه فيما يباشرونه من أعمال .

واذا كان المثل الأعلى عند اليهود هو الجنوح الى المبالغة فى الماديات ، واذا كان المثل الأعلى عند المسيحيين هو الزهد فى الطيبات ، فان الاسلام يعطى للمادة حقها ، ويعطى للروحانية حقها دون تفريط أو افراط . قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرجل لمته ، ويهذب لحيته ويحفى شاربه ويتطيب .

والقرآن الكريم يدعونا الى الزينة عند غشيان المساجد ، ونحن نغشاها خمس مرات فى كل يوم . ومعنى ذلك العناية الدائمة بالزينة . قال تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ويدعونا الى التمتع بالطيبات . قال تعالى : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » . وقال سبحانه وتعالى : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » رواه الترمذى والحاكم . ولا عجب فى ذلك

فقد روى مسلم والترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله جميل يحب الجمال » .

والاسلام يحضنا حضا على اتقان أعمالنا . قال تعالى : « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » رواه البيهقى .

ولقد وعد الله المحسنين بتعجيل ثواب أعمالهم الصالحة فى الدنيا مع الثواب الجزيل فى الآخرة . قال تعالى : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » واتقان العمل يقتضى العلم بمقومات العمل الذى يباشره العامل . وقد أمر الله داود عليه السلام أن يحكم اتقان ما يصنعه من دروع أداء لشكر نعمة الله عليه فى الانته الحديد. قال تعالى : « وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا انى بما تعملون بصير » .

واتقان الأعمال متوقف على الدراسات العلمية المتعلقة بكل عمل ، وكلما تعمقنا فى الدراسات العلمية فتح الله أمامنا مغاليق الكون ، وكشف لنا من آياته الكونية ما يزيدنا حظوة روحية ومادية ويقربنا الى الله ، وقد ذكر الله سبحانه أنه ميز آدم عن ملائكته بالعلم قال تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » والمقصود بالأسماء هنا المسميات أى وضع فى فطرته ادراك العناصر المادية للكون ، وتمييز خصائص كل منها لأفراده باسم

خاص به ، وهذه المعرفة هى التى تؤهله لخلافة الله فى أرضه ، وحمل أمانته بين خلقه ، وهى التى تمكنه من استغلال ما خلقه الله فى الأرض من عناصر المادة ، أو فى السماء من الأشعة والحرارة ، والغلاف الجوى المحيط بالأرض ، قال تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » • وقال سبحانه : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » • ولهذا بعث الله رسوله معلما ، قال تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » والاسلام هو أول صوت ارتفع فى العالم يفرض التعليم على المسلمين جميعا ، قال صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه البيهقى وابن ماجة والطبرانى فى الأوسط وغيرهم •

وقسم الرسول صلى الله عليه وسلم الناس الى فريقين : فريق نـاج ، وفريق هالك ، أما الناجى فهو العـالم والمتعلم والمستمع للعلم والمحب له ، وأما الهالك فسائر الجهلاء ، روى البزار والطبرى فى الأوسط عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ، ولا تكن الخامسة فتهلك » وقال صلوات الله وسلامه عليه : « من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقى الله ولم يكن بينه وبين النبيين الا درجة النبوة » رواه الطبرانى فى الأوسط ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرسل المعلمين الى القبائل ، ويستقبل طلاب العلم من أنحاء الجزيرة العربية ، ويحض على الهجرة فى طلب العلم

فيقول : « من سلك سبيلا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة » رواه مسلم وغيره •

والاسلام أول صوت نادى بمجانية التعليم ، فان التعليم عبادة ، والعبادة أجرها عند الله وحده ، ولهذا كانت المجالس العلمية تملأ المساجد ليتاح لكل انسان غشيان هذه المساجد ، والله تبارك وتعالى يقول : « اتبعوا من لا يسألكم أجرا » •

والاسلام سبق العالم كله الى وجوب اعـلان الحقائق العلمية ، والترهيب من كتمانها ، قال تعالى : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون • الا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » •

وقال صلى الله عليه وسلم « من كتم علما عن أهله ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » رواه ابن حبان والحاكم • وقد رسم القرآن الكريم للمسلمين وسائل المعرفـة ، فهى تأتى عن طريق تلقى العلم عن أعـلام العلماء المتخصصين ، قال تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » أو عن طريق البحث والتجربة الشخصية فى ضوء التفكير العقلى الرشيد ، فالاستماع الى العلماء للاستفادة من خبراتهم وتجاربهم ، والتفكير العقلى الرشيد ، أو هما معا جعلهما القرآن الطريق الى المعرفة الصحيحة ولهـذا عاب القرآن الكريم على الكفار اهـدارهم عقولهم ، وأسماعهم ، قال تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم

قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها » وقال سبحانه : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » وقال عزوجل واصفا أحوالهم يوم القيامة : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » .

والله سبحانه يخبرنا أن المعرفة لا تقف عند حد محدود ، قال تعالى : « وفوق كل ذى علم عليم » . وقال تباركت آلاؤه « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » وأوصى الرسول بأن يدعو ربه بهذا الدعاء : « وقل رب زدنى علما » . ومن أدعيته صلى الله عليه وسلم : « اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علما » رواه الترمذى وابن ماجة .

***

والقرآن الكريم ملىء بالاشارات العديدة الى شتى المعارف والعلوم ، ففى علم الفلك تحدث القرآن الكريم عن النجوم ومواقعها ، والكواكب وزينتها « وكل فى فلك يسبحون » وفى الجيولوجيا أشار الى الجبال وفيها « جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » كما أشار الى المعادن كالحديد والنحاس « القطر » الى المناجم وسماها (الخبء) كما فى قوله تعالى : « الله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون » والى الطب فى قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » والى الأغذية وتأثيرها فى قوله تعالى : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » والدفء اما ظاهرى

عن طريق الجلود والأصواف والأوبار ، واما داخلى عن طريق السعرات الحرارية التى تبعثها الشحوم واللحوم ومنتجات الألبان فى الجسم كما أشار الى العلوم البحرية فى قوله تعالى : « وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله » والى هندسة السدود كسد مأرب وسد ذى القرنين ، والى علوم الأحياء من نباتات وحشرات وطيور وحيوان ، والحديث عن هذا يحتاج الى سفر ضخم ولعلنا نفرده ببحث خاص اذا يسر الله .

والنتيجة أن الفلاح فى حقله ، والعامل فى مصنعه والطبيب فى عيادته والكيميائى فى معمله والبحار فى سفينته والفلكى فى مرصده ..... كل منهم يؤدى عملا صالحا اذا كان مؤمنا بالله ملتزما فى عمله حدود الله وهنا ترى الايمان فى الاسلام مقرونا بالعمل الصالح ، بل هما أمر واحد باطنه ايمان وظاهره عمل ، قال صلى الله عليه وسلم : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » رواه الشيخان وقال عليه الصلاة والسلام : ان الله تعالى لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن انما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » رواه مسلم وابن ماجة .

ومن هنا جمع الاسلام بين الايمان بالله والايمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح ، فكانت عقيدته خير عقيدة ، وتشريعه خير تشريع .

الخاتمــة

ان الدين عنـــد الله الاســـلام

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبـــل منـــه وهو فى الآخـــرة من الخـــاسرين »

ان الدين لا يتفق مع النزعة الفطرية ، ولا يكون ضرورة حتمية الا اذا اكتملت دعائمه الثلاث : الايمان بالله ، والايمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح ، وهذه الدعائم الثلاث أتم وأكمل وأسمى ما تكون فى الاسلام •

فالايمان بالله فى اليهودية يكاد يكون تجسيما بشريا ، فان الشعب اليهودى مغرق فى ماديته لا يؤمن الا بما تدركه حواسه ، ولهذا طالبوا موسى عليه السلام بأن يمكنهم من رؤية الله حتى يؤمنوا به « واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون » وما كاد موسى يذهب لمناجاة ربه حتى اتخذ قومه « من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار» عكفوا على عبادته قائلين : « هذا الهكم واله موسى فنسى » ولما نجاهم الله من فرعون وأغرقه هو وجنوده فى أليم مروا « على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون •ان هؤلاء متبر ما هم فيهوباطل ما كانوا يعملون » •

والله عندهم هو اله بنى اسرائيل وحدهم ، وهم شـــعبه المختـــار ، وهم يعلنون أنهم « أبناء الله وأحبـــاؤه » والمراجع لأسفار العهد القديم الباقية بين أيدينا الآن يجد الوثنية فيـــه تكاد تطمس معالم التوحيد ، أما التلمود فيصور الله ــ تباركت آلاؤه وتنزهت ذاته وصفاته ــ فى صورة امبراطور رومانى ، متخبط فى ضلالاته وأوهامه ، والمجال لا يتسع هنا لنقل النصوص العديدة فى العهد القديم وفى التلمود •

والايمان بالله فى المسيحية أصبح عند المســـيحيين شركا واضحا صريحا ، فان الله عنـــدهم ثالث ثلاثة : « الأب والابن وروح القدس » وقد رفعوا المســـيح عليه الســـلام الى مرتبة الألوهية ، وقالوا : « ان الله هو المسيح بن مريم » وزعموا أن هذا الاله مات مصلوبا ثم انبعثت فيه الحياة بعد أيام •

ولهذا لا نجد دينا قائما الآن بالتوحيد خالصا كما جاء به الاسلام ، فالله سبحانه واحد أحـــد فرد صمد « لم يلد • ولم يولد • ولم يكن له كفوا أحد » وهو قيـــوم الأرض والسموات « ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا » وهو سبحانه يجل عن الشبيه والمثيل ، فانه تعالى : « ليس كمثـــله شىء » وهو سبحانه أول بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء « هو الأول والآخر » ، « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » ، « لا اله الا هو كل شىء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون»

***

وأما الايمان باليوم الآخر ، فقد ذكرنا فى الفصل الرابع أن العهد القديم يكاد يكون خاليا من الاشارة الى الآخرة ، وأما العهد الجديد فاشاراته غامضة مبهمة لا تكون عقيدة واضحة كاملة .

أما الاسلام فقد فصل الحديث عن الآخرة تفصيلا تاما دقيقا ، وأقام الأدلة العقلية ، والبراهين المنطقية ، التى لا تدع سبيلا الى الجحود أو الانكار ، وقد تحدثنا عن هذا بما فيه الغناء .

وأما العمل الصالح عند اليهود فهو مقصور على معاملتهم لليهود وحدهم ، أما بقية الشعوب فان أموالهم وأعراضهم وكرامتهم مباحة لليهود ، وليس لهم أن يعاملوا اليهود بالمثل « فاذا ضرب أمى اسرائيليا فكأنه ضرب العزة الالهية واستحق الموت .. والفرق بين درجة الانسان والحيوان ، كالفرق بين اليهودى وباقى الشعوب ... والكلب أفضل من الأجنبى ، لأنه مصرح لليهودى فى الأعياد أن يطعم الكلب ، وليس له أن يطعم الأجنبى ، أو أن يعطيه لحما ، بل يعطيه للكلب لأنه أفضل منه .. وقد خلق الله الأجنبى على هيئة انسان ليكون لائقا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من أجلهم ، ويحرم على اليهودى أن ينجى أحدا من الأجانب من الهلاك ، أو يخرجه من حفرة يقع فيها ، بل عليه أن يسدها بحجر » (١) .

(١) راجع اسرائيل والتلمود ، واسرائيل فتنة الأجيال ، كلاهما للاستاذ ابراهيم خليل احمد والكنز المرصود فى قواعد التلمود للدكتور روهلنج .

أما الاسلام فان البشر فيه كلهم لآدم وآدم من تراب ، ولا عدوان فيه الا على الظالمين ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

وقال سبحانه : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » .

وأما قمة العمل الصالح عند المسيحيين فهو الرهبنة والزهد فى مقومات الحياة ، وهى عملية انتحارية تؤدى الى فناء الجنس البشرى لو نفذت هذه التعاليم ، ومن الطبيعى أن الرهبان طائفة قليلة ، ولكن سائر المسيحيين مطالبون بعدم مقاومة الشر والاستسلام له تنفيذا لتعاليم العهد الجديد ، وهى عملية انتحارية أيضا ، اذا تم تنفيذ هذه الوصايا : « لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا ، ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين ... أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم » انجيل متى ٥/٣٩ — ٤١ .

أما الاسلام : فهو دين السلام ، ومن خالف السلام فيه فقد اتبع خطوات الشيطان ، قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان » أما اذا

اعتدى على المسلمين عدو غاصب فعليهم أن يقاوموه بمثل عدوانه ، ولا يزيدوا على ذلك بالتنكيل أو التعذيب أو التشفى ، قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » فان جنح الأعداء الى السلام فعلى المسلمين أن يجنحوا اليه ، كما قال تعالى : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » والعمل الصالح فى الاسلام يجمع بين الدنيا والآخرة ، والمادية والروحانية ، ومعاملة المسلم للناس قائمة على المودة والرحمة ، حتى فى ميادين القتال ، واذا اضطرته الضرورة الى الحرب فلا غدر ولا تمثيل ، ولا قتل للنساء ولا للاطفال ولا للشيوخ ، وأسرى الحرب بين أمرين افتداء أنفسهم بالأموال ، أو بأسرى المسلمين ، أو اطلاق سراحهم تفضلا وكرما ، قال تعالى : « فاما منا بعد واما فداء » .

ومن المسلم به أنه لا يمكن اقامة مجتمع دون حكومة توجهه وترشده وترعاه ، وتنتظم أموره طبقا لقوانين مدروسة ونحن نرى فيما عرفه العالم من حكومات مستبدة جائرة ، ينتهى بها الأمر الى أن تدمر نفسها وشعبها تدميرا ، كما أن هناك حكومات تحاول أن تتحرى العدالة ، وتضع دساتير تلتزم بتطبيقها ، ولكن جميع الدساتير الوضعية غير مستقرة ، تتبدل حينا بعد حين تبعا للانقلابات الثورية ، أو تلبية لآراء كبار المصلحين من قادة الشعوب ، أما الأديان فان لها طابع الاستقرار ، وبخاصة الاسلام ، فان دستوره القرآنى « لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه » ولا تغيير فيه ولا تبديل « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » هذا الدستور وضعته العناية الالهية للبشر أجمعين ، وراعت فيه وضع الأسس الرئيسية الثابتة ، وتركت التفصيلات الفرعية ليشكلها كبار المجتهدين — فى اطار الأسس الرئيسية طبقا لتغير الأزمنة ، ولاختلاف البيئات والظروف وتباين العرف ومراعاة المصالح العامة ، ولهذا عرف التشريع الاسلامى القياس والاستحسان ، والمصالح المرسلة ، والعرف الشائع فى نطاق تعاليم القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وبهذا اتصفت الشريعة الاسلامية بالثبات والاستقرار ، مع المرونة الكافية لمراعاة ما تقتضيه الظروف والملابسات ، طبقا لقواعد رئيسية ، أهمها (لا ضرر ولا ضرار) « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » « الضرورات تبيح المحظورات » .

***

وأساس الحكم فى الاسلام : الشورى ، والمساواة أمام القضاء ، وحماية الأنفس والأعراض والاموال ، والحاكم يتولى الحكم بالمبايعة العامة ، أو ما يشبه الانتخاب الآن .

واذا كانت الحكومات ضرورة اجتماعية حتمية لحفظ كيان الجنس البشرى ، فان الاسلام قرر هذا منذ أربعة عشر قرنا ، حيث يوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بوجوب تعيين أمير لكل مجموعة وان صغرت ، قال صلى الله عليه وسلم : « اذا

خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » رواه أبو داود ، وروى الامام أحمد فى مسنده قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض الا أمروا عليهم أحدهم » .

ونظام الحكم فى الاسلام قائم على العدالة المطلقة ، وتطبيق قوله تعالى : « يأيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » .

والامام فى الاسلام راع وهو مسئول عن رعيته ، مسئول أمام الله ، ومسئول أيضا أمام الشعب ، فمن المبادىء الاسلامية أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وقد أعلن الاسلام حقوق الانسان ، قبل أن يعرفها العالم بأكثر من ثلاثة عشرقرنا ، وجاءت فيه أوفى وأكمل مما قررته هيئة فى أواسط القرن العشرين ، واذا كان مجلس الأمن لم يستطع منع البغى والعدوان حتى الآن لأنه ولد بلا قوة رادعة ولأن حق الاعتراض (الفيتو) يشل طاقته ، فان الاسلام قرر صد المعتدى وقمع عدوانه بالقوة فهو يدعو الطرفين المتنازعين الى الصلح ، فان أصر المعتدى على عدوانه فان الاسلام يقابل عدوانه بمثله حتى يفىء الى الاسلام قال تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

ونحن نعلم أن الانسان ينقاد لفطرته ، فاذا انحرفت الفطرة قومها العقل الرشيد ، ولا نجد دينا كرم العقل كما كرمه الاسلام ، وبين أيدينا الكتاب المقدس لا نكاد نجد فيه ذكرا للعقل ، سواء فى العهد القديم الخاص باليهود أو العهد الجديد الخاص بالمسيحيين ، بمعنى التدبر والتفكر الا اشارات عابرة ، وفى هذا يقول العلامة رشيد رضا فى كتابه الوحى المحمدى ص ٢١٠ : تقرأ قاموس الكتاب المقدس ، فلا نجد فيه كلمة العقل ، ولا ما فى معناها من أسماء ، هذه الغريزة البشرية التى فضل بها الانسان جميع أنواع هذا الجنس الحى ، كاللب والنهى لا لأن هذه المادة لم تذكر فى كتب العهدين مطلقا ، بل لانها لم ترد فيها أساسا لفهم الدين ودلائله والاعتبار به ، أما القرآن الكريم فقد خاطب العقل البشرى فى كثير من آياته البينات ، وقدم اليه الحقائق الدينية معززة بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية ، ولهذا كان الاسلام دين العقل ودين الحجة والبراهين قال تعالى : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا » وفى مجادلته المشركين قدم اليهم الأدلة العلمية والعقلية ، ثم طالبهم بالبرهان على صحة ما أدعوه ، قال تعالى : « ام اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم » وقال سبحانه : « أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أاله مع الله ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ومن الأمثلة المنطقية التى تقطع على المعاندين كل حجة ، قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شىء » ؟ الجواب طبعا

بالنفى « أم هم الخالقون » ؟ لا جواب الا النفى « أم خلقوا السموات والأرض » الاجابـة نفى قاطع ، والنتيجـة أنهم لا يوقنون ، ولا يريدون الايقان « بل لا يقنون » .

وقد قمنا باحصاء دقيق لما ذكره القرآن الكريم عن العقل ومرادفاته ومشتقاته ، فكانت النتيجة كما يأتى :

١ — العقل ومشتقاته ورد فى ٤٩ آية قرآنية .
٢ — الفـؤاد ورد فى ١٦ آية قرآنية .
٣ — الفكر ومشتقاته ورد فى ١٨ آية قرآنية .
٤ — التـدبر ومشتقاته ورد فى ٨ آية قرآنية .
٥ — الفقـه ورد فى ٢٠ آية فرآنية .
٦ — الفكر بمعنى التدبر ورد فى ٤٥ آية قرآنية .
٧ — الألباب وردت فى ١٦ آية قرآنية .
٨ — الحكم والحكمة وردتا فى ٣٠ آية قرآنية .
٩ — النهى (العقول) وردت فى ١ آية قرآنية .

فيكون المجموع ثلاثا ومائتى آية ، ولهذا عاب القـرآن الكريم التقليد فى كثير من آياته البينـات ، مثل قوله تعالى : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئـا ولا يهتدون » فاذا انحرفت الفطرة قومها العقل ، واذا تعرض العقل للخطأ رده الوحى السماوى الصادق ، الذى لم يلحقه تحريف ولا تصحيف « فان تنازعتـم فى شيء فردوه الى الله والرسـول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

وبهذا قام الاسـلام على الفطرة السليمة ، وعلى العقل الرشيد ، وعلى الوحى السماوى الصادق ، فكان بهذا أكمل وأتم الأديان ، أو كما قال سـبحانه : « اليوم أكملت لكم دينـكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

ومن هنا : نرى الاسلام بلغ القمة العليا ، والغاية المثلى ، فى التوحيد وفى الايمان بالله واليوم الآخر ، كما بلغ الذروة السامية فى الدعوة الى العمل الصالح ، فان الدين فيه هو المعاملة ، وقوامها أن تعامل الناس بمـا تحب أن يعاملوك به ، كما تمم مكارم الأخلاق ، التى بعث الله بها رسوله الكريم .

ولهذا كان الاسلام ضرورة حتمية لانقاذ البشرية مما تتردى فيه الآن ، أو توشك أن تتردى فيه من هلاك ودمار ، وسـيادة الاسلام آتية لامحالة ، لأن الله وعد أن يظهره على الدين كله « ومن أصدق من الله قيلا » ، وهو سبحانه يأبى الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وعلينا — معشر المسلمين — أن ننهض بعبء الدعوة الاسلامية ، وابراز مقومات الاسلام السامية ، لنعجل بانقاذ البشرية مما تعانيه من تمزق وضياع .

والله ولى المؤمنين المجاهدين ،،،

الفهـــرس

رقم الايداع ١٩٨١/٤٧٢٧